

موسوعة  
المثقف  
المسلم



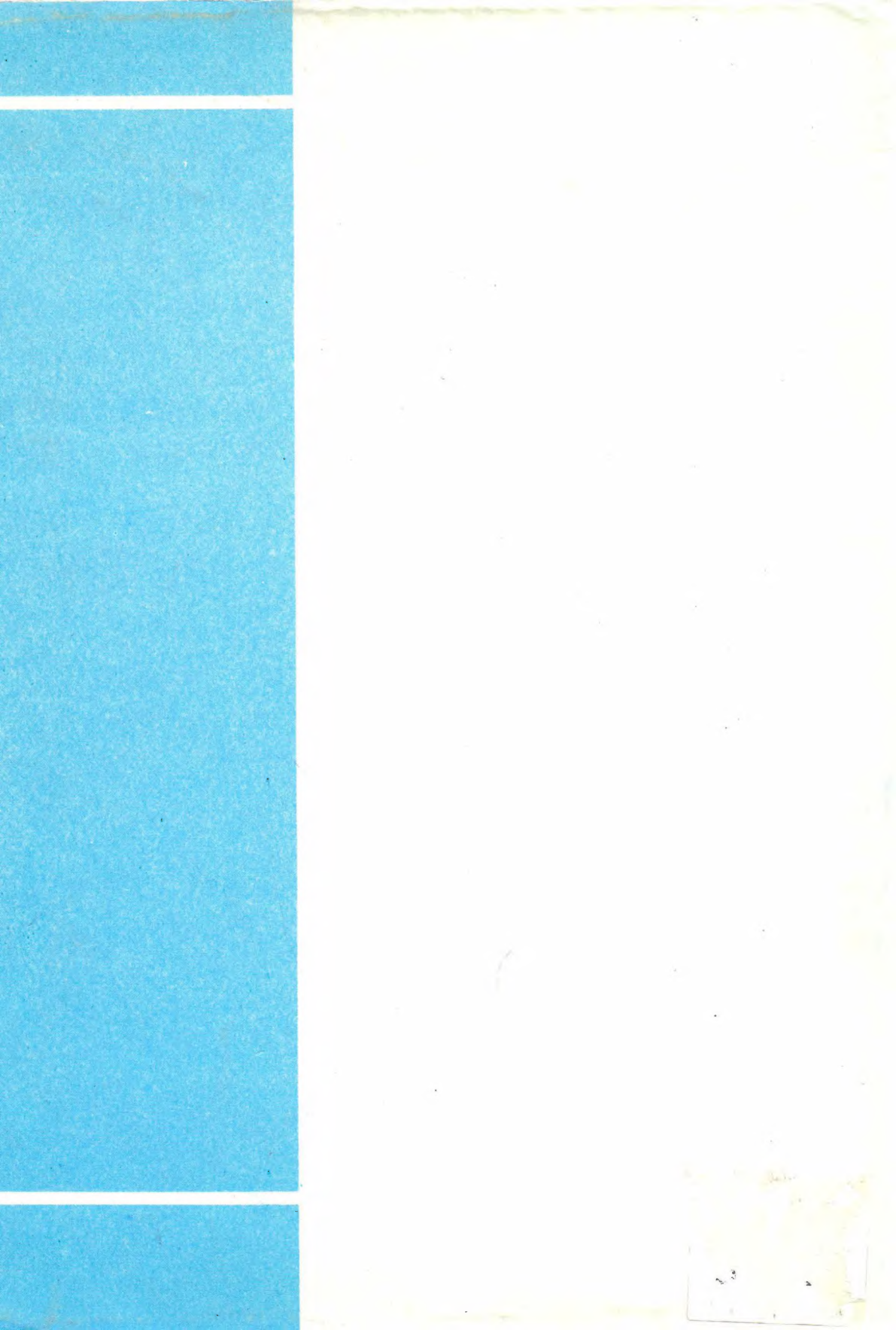
د. عماد الدين خليل

# مؤشرات حول الحضارة الإسلامية



دار الصحوة للنشر والتوزيع





موسوعة  
المثقف  
المسلم

د. عماد الدين خليل

# مؤشرات حول الحضارة الإسلامية

دار الصحوة للنشر والتوزيع



## ( ١ )

ثمة تقسيم تقليدى معروف يتردد خلال الحديث عن الحضارة والثقافة والمدنية يتحتم ألا ننساق فيه ونستسلم لمقولاته .

ذلك هو أن الحضارة ، أية حضارة ، تتضمن ( المدنية ) التى تعنى بالجوانب المادية ، و ( الثقافة ) التى تعنى بالجوانب الفكرية والأخلاقية والفنية .. الى آخره .. وأن مكان العقائد والأديان إنما هو مساحة ما من هذه الدائرة الأخيرة ..

إن الدين ، أو العقيدة ، فى المنظور الاسلامى ، إنما هى أوسع بكثير من أن تقتصر على جانب ما من دائرة الثقافة ، بل هى أوسع حتى من دائرة الحضارة على امتدادها .

إنها رؤية شاملة للكون والحياة والإنسان .. برنامج عمل ومنهاج حركة يهيمن على كافة المعطيات الحضارية : مدنية وثقافية ، ولا ينضوى تحت أية جزئية منها ، مهما كانت غالبة هذه الجزئية وتدفق معطياتها ..

إن هذه الرؤية العقيدية ذات الطابع الشمولى هى التى يتحتم أن تحتوى الحضارة ، وتصبغها ، وتمنحها خصائصها ، وترسم سبل صيرورتها ونموها .. وليس العكس بحال من الأحوال .

إن التقاليد الثقافية الوضعية من جهة ، وانكماش المساحة التى تحركت عليها المسيحية والبوذية أو غيرهما من الأديان والعقائد والفلسفات وعدم قدرتها على تغطية مطالب الحياة كافة ، والاستجابة لنداءات القوانين والسنن التاريخية ، من جهة أخرى ، هى التى كادت أن تفرض

هذا التقسيم الخاطئ الذى يحجم دور العقيدة أو الدين ، ويجعله أسير مساحة أو حيز من دائرة أكثر اتساعا هى دائرة الثقافة ..

والخطأ الذى يتمخض عن افتراض كهذا يقوم على اعتبار النشاط الثقافى البشرى هو القاعدة ، وهو الدائرة الأكثر اتساعا ، وما الدين أو العقيدة ، حتى على فرض التسليم المطلق بقدموها من السماء ، سوى جانب محدود من جوانب النشاط البشرى ، جانب لا يظل بحال محتفظا بأصوله السماوية بل يضاف اليه ، بمرور الوقت الكثير من المعطيات والإسقاطات البشرية لكى ما يلبث أن يغدو ، فى معظم الأحيان ، انعكاسا وضعيا صرفا ..

فى التجربة الغربية يمكن أن يجد المرء تبريرا لهذا الذى ينكمش فيه الدين ويغدو رافدا من عشرات الروافد التى تغذى بحر الثقافة الكبير .. يجد التبرير لأن التجربة الدينية نفسها ، كما قلنا ، اختارت أن تتحرك على مساحة ضيقة من الأرض ، وتركت — بإرادتها أو طبيعة نسيجها — المساحات الأوسع يعبث بها العقل الوضعى على هواه ..

لكننا كمسلمين ، لسنا ملزمين باعتبارات كهذه .. بتقسيمات هى وليدة تجربة غير تجربتنا ، وتاريخ غير تاريخنا ، ودين غير ديننا .. على وجه اليقين ..

لقد جاء الإسلام لكى (ينظم) كافة شؤون الحياة المدنية والثقافية ... يصنعها ويهيمن عليها ، ويمنحها الطابع والصبغة .. جاء الإسلام لكى يشكل حضارته الخاصة به ، حضارته التى تستمد مقوماتها من نسيجه ، بل تستمد كينونتها من مكوناته وتوجهاته وخصائصه .

وما دام الإسلام يمد يده لكى يصوغ كافة مناحى الحياة المادية والروحية ، المدنية والثقافية ، فإنه ليس من قبيل التعسف القول بأن

حضارة الإسلام إنما هي وليدة هذا الدين ، وأنها إنما تتخلق في رحمته وتكسب مادتها وصورتها ، جسدها وروحها ، من نبعه الصاعد ودمه المتفجر بالحياة ..

وليس من قبيل التعسف رفض المقولة الشائعة ، المقولة الخاطئة ، التي تريد أن تجعل الإسلام ومعطياته ، تحتل جانباً ما ، مساجة فحسب من نسيج عام لحضارة يتصورون خطأ أنها تمخضت بالضرورة عن نشاط بشري وضعى صرف .

ومنذ أكثر من عقدين طرح أحد كبار الكتاب الإسلاميين عبارة أن الإسلام هو الحضارة ، وهو بصدد مناقشة مسألة الاحتواء الحضارى للإسلام ..

وهذا حق ..

وحق كذلك أن نمضى خطوة أخرى الى الأمام ونقول بأن الإسلام هو صانع الحضارة .. وبالتالي فإنه يستحيل — منطقياً — أن نجعله يمثل جانباً — محصوراً من مساحة واسعة تمتد إليها حضارة هي وليدة الإسلام نفسه ..

إننا سنقع في هذا اللبس بالتأكيد لو أننا سمحنا لأنفسنا بأن تنساق وراء التقسيمات التقليدية للتركيب الحضارى ، وهي — على كثرة تكرارها — أصبحت تملك ثقلاً فرض على الكثير من الإسلاميين أنفسهم الخضوع لمقولاته ..

والتراجع عن الخطأ ، كما يقول المثل ، فضيلة ، وقد آن الأوان للتحقق بهذه الفضيلة .. كما أنه قد آن الأوان للتوقف عن الانسياق وراء التقسيمات التقليدية لأجدادنا أنفسهم وهم يتحدثون ، في السياق

نفسه ، عن علوم ( نقلية ) وأخرى ( عقلية ) ، وكأن هناك جدارا غاصلا بين العلمين ..

ويتساءل المرء : ألم يدخل الإسلام لكى يصوغ العلوم العقلية ويتوغل فى جزئياتها ومسالكتها برؤيته المتميزة وتحليله الخاص ؟ ويتساءل — كذلك — ألم تكن العلوم النقلية نفسها عقلية بمعنى من المعانى ، أى بكونها استجابة ناجحة متفردة لمطالب العقل البشرى ؟ •

إننا بحاجة الى التريث قليلا ونحن نتعامل مع التقسيمات والمصطلحات وإنه ليتحتم علينا أن نرفض ( الكثير ) من هذه التقسيمات وتلك المصطلحات ، إذا اقتضى الأمر ، لكى ننحت ونصوغ تقسيماتنا ومصطلحاتنا المنسجمة مع رؤيتنا العقيدية وصبغتنا الإلهية ( صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ؟ ) ( ١ ) •



## ( ٢ )

أعاد الإسلام صياغة العقل البشرى بما يجعله قديرا على الفعل الحضارى من خلال تحقيقه بالشروط الحركية والمنهجية والإبداعية لهذا الفعل .

وذلك - بحق - هو الأساس الذى يتحتم أن نقف عنده قليلا ونحن نتحدث عن صيرورة الحضارة الإسلامية لكى نضع أيدينا على المنطلقات العقيدية التى مكنت المسلمين من ذلك التحقق الحضارى الفذ عبر التاريخ .

لقد تمت عملية إعادة الصياغة من خلال « نقلات » أساسية ثلاث : نقله تصويرية إعتقادية ، وأخرى معرفية ، وثالثة منهجية .  
وسنحاول أن نعرض لها هنا بقدر كبير من الإيجاز ( ٢ ) .

### ( ١ ) النقلة التصويرية - الاعتقادية :

ليس ثمة خطوة فى تاريخ البشرية حررت العقل ، وكرمته ، ووضعتة فى موضعه الصحيح كهذه الخطوة ، تحويل التوجه الإنسانى من التعدد إلى الوحدة ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الحق الذى لا تلمسه الأيدى ولا تراه العيون . . كسر للحاجز المادى باتجاه الغيب ، وتمكين للعقل من التحقق ( بقناعات ) تعلو على معطيات الحس القريب .

---

( ٢ ) وردت هذه المسألة مفصلة فى كتاب للمؤلف بعنوان ( حول إعادة تشكيل العقل المسلم ) من ٢٧ - ٦١ .

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذه النقلة فقال إنها خروج بالناس ( من الظلمات إلى النور ) .. للتحول الكامل من الأسود إلى الأبيض ، والانتقال من النقيض إلى النقيض .. وقال أيضا بأن الإسلام جاء لتحرير بنى آدم ( ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ) .. ونادى أكثر من مرة بأن الدين الجديد هو ( الصراط المستقيم ) وما وراءه فليس سوى التيه ، والاعوجاج ، والضياغ ، والهوى والضلال .. ولن يقدر عقل مهما أوتى من غفنة على أن يعمل ويبدع ويعطى وهو يتخبط بالتية ويكبل بالأغلال .

إن العقيدة الجديدة جاءت لكى تنقل الانسان إلى السعة والعدل والتوحيد ، هنالك حيث يجد العقل نفسه ، وقد أعيد تشكيله بهذه القيم ، قديرا على الحركة والفعل عبر هذا المدى الواسع الذى منحه إياه الإسلام ، غير محكوم عليه بظلم من سلطة فكرية قاهرة ترغمه على قبول ما لا يمكن قبوله باسم الدين ، متحققا بالتقاييل الباهر بين الإنسان والله .. حيث يملك وحده حق التوجه ، والتعبد ، والمصير ..

ولكى ندرك البعد الشاسع لهذه النقلة التصورية فى مجال العقيدة فإن لنا أن نستحضر فى أذهاننا ممارسات العقل العربى فى الجاهلية ، وطرائق إدراكه للعالم ، وصيغ تعامله مع ما ( تصوره ) القوى التى تهيم عليه وتسيره .. ونقارن هذا بالمستوى الذى احتله العقل المسلم بعد إعادة تشكيله بالاعتقاد الجديد .

لقد طرحت هذه العقيدة ، أو بنيت بعبارة أدق — على حشد من القيم التصورية كالربانية والشمولية والتوازن والثبات والتوحيد والحركة والإيجابية والواقعية .. تلتئم وتتداخل وتتكامل لكى تشكل نسقا عقديا ما بلغت عشر معشاره أية عقيدة أخرى فى العالم ، وضعية كانت أم دينية ، ولن تبلغه أبدا .. وكما أن هذا النسق المحكم يمثل

تطابقا باهرا مع معطيات الفطرة البشرية فى أصولها النقية الحرة ،  
فإنه يمثل فى الوقت نفسه ذات التطابق مع معطيات العقل المحضة  
وتطلعاته وآفاقه ..

إن التصور الإسلامى نسيج وحده .. وإن المغزل الإلهى الذى  
حاكه بإعجاز يصعب تنفيذه على الإنسان ، هو الذى عرف كيف يعيد  
تشكيل العقل الجديد ، ويدفعه فى الوقت نفسه ، إلى الحركة التى  
لا سكون بعدها ..

لقد منحه الأرضية ، وأعطاه الإشارة وسنجه ينطلق بعدها لكى  
يصنع المعجزات •

### ( ب ) النقلة المعرفية :

وهى عمل فى صميم العقل من أجل إعادة تشكيله بالصيغة التى  
تمكنه من التعامل مع الكون والعالم والوجود بالحجم نفسه ، والطموح  
نفسه ، الذى جاء الإسلام لكى يمنحها الإنسان •

منذ الكلمة الأولى فى كتاب الله .. نتقى بحركة التحول المعرفى  
هذه : ( اقرأ باسم ربك الذى خلق • خلق الإنسان من علق • اقرأ  
 وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الإنسان ما لم يعلم ) ..  
وعبر المسيرة الطويلة ، مسيرة الإثنتين والعشرين سنة ، حيث كانت  
آيات القرآن تنزل بين الحين والحين ، استمر ( التأكيد ) نفسه لتعميق  
الاتجاه ، وتعزيزه ، والتمكين للنقلة ، وتحويلها الى واقع يومى معاش •

إن نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكير والتعقل والتفقه  
والتدبر .. إلى آخره .. منبثة فى نسيج كتاب الله .. لم تخفت نبرتها  
أبدا هناك فى العصر المكي أو هنا فى العصر المدنى •

ليس عبثاً أن تكون كلمة ( اقرأ ) هي الكلمة الأولى في كتاب الله ..  
وليس عبثاً أن تتكرر مرتين في آيات ثلاث .. وليس عبثاً — كذلك — أن  
تجد كلمة ( علم ) ثلاث مرات وأن يشار بالحرف إلى القلم : الأداة التي  
يتعلم بها الإنسان ... وبعدها وعبر المدى الزمني لتنزل القرآن ،  
ينهمر السيل ويتعالى النداء المرة تلو المرة : اقرأ ، تفكر ، اعقل ، تدبر ،  
تفقه ، انظر ، تبصر .. إلى آخره .. ويجد العقل المسلم نفسه ملزماً ،  
بمنطق الإيمان نفسه ، بأن يتحول ، أن يتشكل من جديد لكي يتلاءم مع  
التوجه ( المعرفي ) الذي أراده الدين الجديد .

بل إن نسيج القرآن الكريم نفسه ، ومعانيه المعجزة ، من بدئها  
حتى منتهاها في مجال العقيدة ، والتشريع ، والسلوك ، والحقائق العلمية ،  
تمثل نسقا من المعطيات المعرفية كانت كفيلا ، بمجرد التعامل المخلص  
الذكي المتبصر معها ، أن تهز عقل الإنسان وأن تفجر ينابيعه وطاقاته وأن  
تخلق في تركيبة خاصة التشوف المعرفي لكل ما يحيط به من مظاهر  
ووقائع وأشياء .

لقد كان القرآن الكريم يتعامل مع خامة لم تكن قد حظيت من  
( المعرفة ) إلا بالقسط اليسير ، مع جيل من الناس لم يبعد — بعد —  
عن تقاليد الجاهلية وقيمها وطفولتها الفكرية .. لكنه قدر بقوة الإيمان  
المعجون بالدعوة الجديدة ، على أن يعلمهم فعلا وذلك بأن يعيد تشكيل  
عقولهم لكي تكون قديرة على استيعاب المضامين الجديدة ومدركة  
للأبعاد الشائعة التي جاء هذا الدين لكي يحرك الإنسان صوب آفاقها  
الرحبة ... وما كان ذلك ليتحقق لولا إشعال فتيلة التشوف المعرفي في  
العقل المسلم ودفعه إلى البحث والتساؤل والجدل ..

لقد انتهى عهد الاستسلام والسكون والرضا بأوساط الأشياء ..  
وجاء عهد القلق والحركة .. بحثا عن الكمال الذي يليق بمعطيات  
الدين الجديد ..

إن الإسلام لا يهتم بالتفاصيل ، ولكنه يسعى إلى تكوين ( بيئة ) عمل وإنجاز تتضمن كافة الشروط والمواصفات التى تمكنها من العطاء .. وها هنا فى حقل التوحيد المعرفى تمكن الإسلام من خلق هذه البيئة .. فبعث أمة من الناس ما زال عقلها يعمل ويكد ويتوهج حتى أنار الطريق للبشرية يوم كانت تدلج فى ليل بهيم ..

إن النهار الذى أطلعت فيه حضارة الإسلام الآتية ، ما كان له أن يطلع لولا الشملة التى مست عقل كل مسلم ودفعته إلى التألق وهو ينطلق لتعزيز يقينه الجديد .

### ( ج ) النقلة المنهجية :

ترتبط هذه النقلة ، بشكل ما ، بالنقلتين السابقتين وتنبت عنهما فى الوقت نفسه .. ونحن نعرف اليوم كم يلعب ( المنهج ) دورا خطيرا فى حركة الإنسان الفكرية والحضارية عموما .. ونعرف أنه بدون ( منهج ) فليس ثمة طريق يوصل إلى الأهداف مهما بذل من جهد وقدم من عطاء .. وسنرجع إلى ذلك مرة أخرى ..

والنقلة المنهجية التى أتيح للعقل المسلم أن يتحقق بها ، أن يتشكل وفق مقولاتها ومعطياتها ، امتدت فى اتجاهات ثلاثة :

١ - السببية : من خلال التمعن فى نسيج كتاب الله نجد كيف منحت آياته البينات العقل المسلم رؤية تركيبية للكون والحياة والإنسان والوجود .. تربط وهى تتأمل وتبحث ، وتعاین وتتفكر ، بين الأسباب والمسببات ، تسعى إلى أن تضع يدها على الخيط الذى يربط بين الظواهر والأشياء فى هذا الحقل أو ذاك ، وفى هذه المساحة أو تلك .. لقد أراد القرآن الكريم أن يجتاز بالعقل العربى مرحلة النظرة التبسيطية المسطحة ، المفككة ، التى تعاین الأشياء والظواهر كما لو كانت منقطعة

معزولة منفصلا بعضها عن بعض ، وهى خلال ذلك لا تملك القدرة على الجمع ، والمقارنة ، والقياس ، والتقاط عناصر الشبه وعزل عناصر التباير .. لا تملك إمكانية التركيب والاختزال والتركيز للوصول إلى الدلالات النهائية للظاهرة من خلال معاينة ارتباطاتها وعلائقها بالظواهر الأخرى .

ولقد تمكن القرآن بطرقه المستمر على العقلية التبسيطية أن يعيد تشكيلها لتبعث من جديد بالصيغة التى أرادها لها : عقلية تركيبية تملك القدرة على الرؤية الاستشرافية التى تطل من فوق على حشود الظواهر بحثا عن العلائق والارتباطات ووصول إلى الحقيقة المرتجاة .

بل إن إحدى طرائق القرآن المنبثة عبر سوره ومقاطعها من أقصاها إلى أقصاها هى للتأكيد على ضرورة اعتماد هذه الرؤية السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق ووحدانية الخالق سبحانه .. إذ بدون هذه القدرة على الربط بين الأسباب والمسببات فإن العقل المؤمن لن يكون قادرا على التحقق بالقناعات الكافية ، ولن يكون بمقدور آيات الله المنبثة فى الطبيعة والعالم والوجود أن تحدث فينا هزة الإيمان العميق المتمخض دوما عن اكتشاف الارتباط المحتوم بين معجزة الخلق وبين الخالق .

لن يتسع المجال لاستعراض الآيات التى نادى المسلمون مرارا للتحقق بهذه الرؤية التركيبية ، والربط بين الأسباب ، فهى كثيرة جدا ، وبخاصة فى العصر المكي حيث كانت ضرورات التربية العقيدية تقتضى التأكيد على تكوين عقليات كهذه .. تقارن وتركب وتربط بين الأسباب .

ومن خلال هذا التأكيد ، ذى الارتباط العميق بالموقف الإيماني عموما ، أصبح العقل المسلم يرى فى رؤية كهذه ضرورة من الضرورات ، بل بداهة من البداهات .. وراح يمارسها صباح مساء ، ويتمرن على



الأخذ بها والعمل وفق شروطها ، حتى غدت بالنسبة له تقليدا عقليا سائدا ، وغدا الكون والعالم والطبيعة والوجود — في مقابل هذا — سلسلة من الظواهر والمعطيات يرتبط بعضها ببعض بأوثق الأسباب •

لقد انتهى عهد التفكك ، والعزلة ، والتبسيط •• إن الكون الذى هو تعبير عن إبداع الخالق، تشده قوانين واحدة، وأسباب واحدة ، ونواميس واحدة ، تصدر عن إرادة واحدة •• ولم يتحقق فهمه أبدا ما لم ينظر إليه من خلال رؤية عقلية تعرف كيف تجمع وتلم وتقارن وتختزل وتركب •• وصولا إلى الحقائق التى تبغيها ••

إن الكشف عن ( السببية ) والأخذ بشروطها المنهجية كسب كبير للعقل البشرى وإضافة قيمة مكنته من إعادة التشكل فى صيغ أكثر قدرة على العطاء والإبداع •

٢ — القانونية التاريخية : ولأول مرة فى تاريخ الفكر يكشف الغطاء أمام العقل البشرى عن حقيقة منهجية على درجة كبيرة من الخطورة : إن التاريخ البشرى لا يتحرك فوضى ، وعلى غير هدف ، وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التى تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء ، سواء بسواء •• وإن الوقائع التاريخية لا تتخلق بالصدفة وإنما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك ••

القانون يحكم التاريخ •• تلك هى المقولة التى لم يكن النقاب قد كشف عنها قبل نزول القرآن •• إن كتاب الله يقدم أصول ( منهج ) متكامل فى التعامل مع التاريخ البشرى والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب ، إلى محاولة استخلاص القوانين التى تحكم الظواهر — الاجتماعية — التاريخية ، كما فعل ( ابن خلدون ) — فيما بعد — على سبيل المثال ، فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة

التاريخ الذين ما تلقوا إشارته تلك وبنوا عليها إلا بعد انقضاء خمسة قرون • وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء وتواريخ الجماعات والأمم السابقة ، وعلى وجود ( سنن ) و ( نواميس ) تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وانتقالها من حال إلى حال •

إن المنهج الجديد الذى يطرحه القرآن الكريم يؤكد ، أكثر من مرة ، على أن ( التاريخ ) لا يكتسب أهميته الإيجابية إلا بأن يتخذ ميدانا للدراسة والاختبار تستخلص منه القيم والقوانين التى لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها •• إن القرآن يطرح على العقل البشرى — إذن — ولأول مرة مسألة ( السنن ) و ( النواميس ) التى تسير حركة التاريخ وفق منعطفها الذى لا يخطئ ، وعبر مسالكها ( المقننة ) التى ليس إلى الخروج عليها سبيل لأنها منبثقة من صميم التركيب البشرى ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغرائز وأخلاقا وفكرا وعواطف ودوافع ووجدانا ، ومن قلب العلاقات والوشائج والارتباطات الظاهرة والباطنة فى العالم الذى يتحرك فيه الإنسان ، والتى تتجاوز فى اتساعها وشموليتها تسميات البيئة الجغرافية أو الوضع الاقتصادي لكى تتسع للفعل التاريخى نفسه ، الفعل القائم على القيم الثابتة الدائمة فى كيان الإنسان والتى تنبثق عنها المواقف التاريخية سلبا وإيجابا • ومن ثم فإن حكمها على هذه ( الحركة ) يجرى منطقيا تماما لأنه أشبه ( بالجزاء ) الذى هو من جنس ( العمل ) وعادلا تماما لأنه يكافئ الإنسان ، فردا وجماعة ، بما يوازي طبيعة الدور التاريخى الذى مارسوه ، حتى لكان القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية ، سلفا ، نتائجها التى ترتبط ارتباطا صميما بمقدماتها ، اعتمادا على استمرارية السنة التاريخية ودوامها •

والقرآن الكريم لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب ،

ولكنه يحولها فى الوقت نفسه إلى دافع حركى يفرض على الجماعة المؤمنة أن تتجاوز مواقع الخطأ التى قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار ، وأن ( تحسن ) التعامل مع قوى الكون والطبيعة ، مستمدة التعاليم والقيم من حركة التاريخ نفسه •

٣ - منهج البحث الحسى - التجريبي : يمكن القول بأنه لاالكشف عن السببية ولا القانونية التاريخية يعدل الكسب المعرفى القيم الذى أحرزه العقل المسلم خصوصا ، والعقل البشرى عموما ، والذى تمثل بمنهج البحث الحسى - التجريبي الذى كشف النقاب عنه ، ونظمه ، وأكدته ، ودعا إليه : كتاب الله ••

نقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق ( النظر الحسى ) إلى ما حولهم ، ابتداء من واقع أقدامهم وانتهاء بآفاق النفس والكون ، وأعطى للحواس مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم فى مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب •• وناداه أن يمعن النظر إلى ما حوله •• إلى خلقه •• إلى طعامه وشرابه •• إلى الملكوت من حوله •• إلى التاريخ وحركة الإنسان فى الأرض •• إلى خلائق الله وآياته المبثّة فى كل مكان •• إلى النواميس الاجتماعية •• إلى الطبيعة والعالم •• إلى الحياة الأولى كيف بدأت ، وكيف نمت وارتقت •• ودعاه أن يحرك ( سمعه ) باتجاه الأصوات لكى يعرف ويميز ، فيأخذ أو يرفض ، فمن الاختيار البصير ينبعث الإيمان •

وانتقل القرآن خطوة أخرى فدعا الناس إلى تحريك ( بصائرهم ) تلك التى تستقبل فى كل لحظة مدركات حسية لا حصر لها ، ثم تتحمل مسؤوليتها فى تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى الحق الذى تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخلقة •

وتتوالى الآيات ، تؤكد المرة تلو المرة على أن السمع والبصر والفؤاد جميعا هى التى تعطى للحياة البشرية قيمتها وتفردا ، وأن الإنسان بتحريكه هذه القوى والطاقات ، بفتح هذه النواغذ على مصاريعها ، سيتبوأ مركزه المسؤول خليفة عن الله فى الأرض ، وأنه بتجميد هذه الطاقات وقفل نواغذها يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التى ما أرادها له الله يوم منحه نعمة السمع والبصر والفؤاد • • منزلة البهائم والأنعام •

وحشد آخر من الآيات ، جاوز الخمسين ، حث على تحريك العقل، المفتاح الذى منحه الله لبنى آدم والذى يتوجب اعتماده لكى تمضى الكشوف والمعطيات إلى غايتها • وآيات أخرى نادى بوجوب (التفكر) و (التفقه) وهى خطوة عقلية أبعد مدى من التفكير ، تجعل الإنسان أكثر وعيا لما يحيط به ، وأعمق إدراكا لأبعاد وجوده وعلائقه فى الكون ، كما تجعله متفتح البصيرة دوما مستعدا للحوار المسؤول إزاء كل ما يعرض له على صفحة العالم والوجود •

وأكد القرآن على الأسلوب الذى يعتمد ( البرهان ) و ( الحجة ) و ( الجدال الحسن ) للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص • ولا يسعنا هنا استعراض جل ما ورد من آيات فى هذا المجال ، أو حتى الإشارة إليه ، ويكفى أن نشير إلى أن كلمة ( علم ) ، بتصريفاتها المختلفة ، وردت فى عدد من الآيات جاوز السبعمائة والخمسين •

ومن ثم فلا يتصورن أحد أن الإسلام ما جاء إلا لكى يؤكد فى موقفه من العمل الحضارى على الجوانب الأخلاقية والنروحية فحسب • إننا بإزاء آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة فى قلب العالم والطبيعة وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس فى أعماق التربة وفى صميم العلاقات المادية بين الجزئيات

والذرات .. إنا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسألة الايمان وبين الإبداع والكشف ، بين التلقى عن الله والتوغل قدما في مسالك الطبيعة وأغاميسها .. بين تحقيق مستوى روحى عال للإنسان على الأرض وبين تسخير طاقات العلم لتحقيق نفس الدرجة من التقدم على المستوى المادى .. ولم يفصل الإسلام بين هذا وذاك .

والنتيجة المحتومة التى تمخضت عن هذه التحولات الحاسمة عقديا ومعرفيا ومنهجيا .. تشكل عقل جديد قدير على الاستيعاب والفعل والإضافة والإبداع ..

وهكذا ، فإن النقلة أو التحول الحضارى الكبير الذى نفذه المسلمون وتحققوا به عبر قرون التألق والعطاء ، إنما جاء ثمرة ( للعقلية ) التى صاغها الإسلام ومكنها بتحولاته الخطيرة تلك من أن تلعب دورها الشامل فى تكوين وإغناء الحضارة الإسلامية .

ولم تكن هذه النقلة الحضارية ، بحال ، أقل خطورة من النقلات الثلاث التى مهدت لها وشقت أمامها الطريق .. فلقد كانت على درجة من الثقل والامتداد جعلتها أمرا تاريخيا مشهودا ، قدم إسهامه المتنوع الغزير ليس فقط على مستوى الجغرافية الإسلامية وإنما جغرافية العالم الحضارى كلها ..

إن الأفكار ، أو النشاط العقلى ، بعبارة أخرى ، هو الذى يسهم جنبا إلى جنب مع قوى الإنسان الأخرى وطاقاته المتشعبة ، فى صناعة الحضارات وليس العكس مما تقول به بعض النظريات التى أكدت رجوعيتها آخر معطيات العلم الحديث .. صحيح أن الصيغة الحضارية تؤثر فى العملية العقلية وتلعب دورا أكيدا فى توجهاتها .. ولكن مفتاح الحركة ، والكلمة الفاعلة فيها هى للعقل أولا وأخيرا ..

وهكذا فإن قيام الدين الجديد بتشكيل عقل إسلامي فعال ،  
بالمواصفات التي تحدثنا عنها ، ومن خلال تحولات جذرية على كافة  
المستويات العقيدية والمعرفية والمنهجية .. كان بمثابة إرهاب لمولد طاقة  
حضارية غضة كان لا بد أن ( تلد ) عطاءها المتواصل بعد أن نضج الجنين  
في رحم تهيأت له كافة شروط الميلاد الميسور .

لقد شهد التاريخ حضارة الإسلام المبدعة .. وكان الأمر في التحليل  
النهائي بمثابة تحقق في الزمان والمكان ، للرؤية التي تنزل بها هذا  
الدين ، فأعاد من خلالها صياغة الروح والقلب والعقل والضمير ..  
ولولاها .. لما كان بمقدور العقل العربي ، بمواصفاته التقليدية القديمة،  
أن يفعل عشر معشار هذا الذي فعله بعد إعادة تشكله بالمؤثرات  
والتحولات التي صنعها الإسلام ..



### ( ٣ )

تتدفق الحضارة كالمياه المتفجرة باتجاهات عديدة ، لكنها — بطبيعة الحال — متداخلة متشابكة ، تتبادل العلاقات التأثيرية في هذا الجانب أو ذاك • ويمكن تحديد هذه الاتجاهات بدوائر أو قطاعات كبيرة ثلاثة تتضمن كل منها حشودا من الفروع والجزئيات والتفاصيل وهذه الدوائر هي :

أولا — دائرة النشاط الثقافي وهو الذي يتضمن الجانب العقيدى والفكرى والروحي للحضارة ويلعب دوره الحاسم في منحها سماتها المتفردة وشخصيتها المستقلة •

ثانيا — دائرة النشاط الاقتصادى والتقنى والعمرانى وهو الذى يتضمن الجانب المادى للحضارة ويصطلح عليه أحيانا بالمدنية •

ثالثا — دائرة النشاط الإدارى وهو الذى يتضمن الجانب الفنى ويتحرك من خلال النظم والمؤسسات السياسية والإدارية التى تقوم بمهمة الإشراف والتخطيط للمعطيات كافة وتحدد العلاقات بين العاملين ضمن حلقات الحضارة الواحدة •

وقد تدفقت الحضارة الإسلامية عبر هذه القنوات الكبيرة الثلاث ، وراحت تنمو وتتشكل وتزداد غنى بمرور الوقت • وكانت العقيدة الإسلامية التى صنعت هذه الحضارة وأدمتها بعناصر الحركة والديمومة ، تصبغ معطيات هذه القنوات وتشكلها وتصوغها • وقد يحدث أن تند هذه الجزئية أو تلك عن هذا المنطوق ، لسبب أو آخر ، ولكن المجرى العام كان ( إسلاميا ) رغم أن التمثل الإسلامى قد يكون ناقصا أو خاطئا أو غير منسجم — على الأقل — مع أطروحات الإسلام نفسه •

ومنذ اللحظات الأولى قدرت الحضارة الإسلامية الوليدة على أن تواجه التحديات المبكرة وتستجيب لها وتطويعها عبر القنوات الثلاث : الثقافية والاقتصادية والإدارية فتزداد بذلك غنى وأصاله واتساعا •  
وبمرور الوقت شهدت المؤسسات الإسلامية التي غرست بذورها الأولى في عصرى الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضى الله عنهم ، نموا متزايدا فى كافة المجالات، وأخذت المعطيات الحضارية تتصاعد وفق معدلات إنجاز زمنى سريع ومكثف ، لكى ما تلبث أن تبلغ منحنيات المتقدمة بعد قرنين أو ثلاثة •

ولا نستطيع — مرة أخرى — أن نفصل بين هذه المعطيات وبين الأمة التى صاغتها وأبدعتها ، أى بين خصائص هذه المعطيات وبين قيم ومبادئ واهتمامات وتصورات الجماعات المسلمة التى صنعتها فكرا وعلما وفنا وأدبا واقتصادا وإدارة وعمرانا ، كما أنه ليس بمقدورنا أن نعلق خصائص هذه الحضارة على موقف السلطة فى التزامها أو عدمه من قيم الإسلام وأهدافه ، لأن السلطة وإن كانت تلعب دورها البارز فى تكوين المنجزات الحضارية ومنحها بعض خصائصها ومكوناتها ، إلا أن هذه المنجزات تبقى دائما أكبر من السلطة ، من محاولات السلطة وضبطها ونظمها ، وتتسع منداحة باستمرار لكى تجيء دائما موازية لحجم الجماهير الأوسع والأقدر على الإنجاز ، والأكثر — فى معظم الأحيان — إيمانا والتزاما •• إن الحضارات الكبيرة تميل دوماً لأن تكون تعبيرا عن معطيات أمة بكاملها •

وهكذا فإن الكثير مما تدين له الحضارة الغربية المعاصرة ، يعود فى أسسه ، باعتراف الغربيين أنفسهم كما سنرى ، إلى ذلك العصر الذى تفجر فيه كل ذلك الإبداع فى إطار قيم الإسلام ومثله ، على أيدى وعقول وقلوب ما كانت تنبض وتتحرك وترعى — فيما عدا حالات محدودة — إلا بنبض عقيدة الإسلام نفسها وحركة شريعته ذاتها •

## ( ٤ )

والآن فإننا نريد أن نتابع — بإيجاز — بعض المسائل الأساسية فيما كانت تشهده كل واحدة من دوائر النشاط الحضارى الثلاث لكى نخلص إلى عرض مركز لخصائص الحضارة الإسلامية وأبعاد الدور الذى لعبته فى سياق الحضارات العام •

فى دائرة النشاط الإدارى الذى ينصب على النظم والمؤسسات السياسية والإدارية للدولة الإسلامية ، والذى يتدرج بشكل هرمى يبدأ فى قمته بمنصب الخلافة ، وينتهى فى قاعدته بصغار الموظفين والكتاب ، نلتقى بأساليب وصيغ حيوية ( دانيامية ) فى ندو الأجهزة والخدمات الإدارية ، وتشعبها ، وقدرتها على الاستجابة للتحديات والتفوق عليها من أجل السيطرة على مقدرات دولة تزداد اتساعا وتعقيدات ومطالب أمة تزداد تشابكا وامتدادا •

كان الهيكل الإدارى للدول الإسلامية المتعاقبة يتكون — عموما — من الخليفة ، أو من يحل محله فى المنصب الأعلى على اختلاف التسميات ، و يليه الوزير ، فالحاجب ، فالوالى أو الأمير ، فرؤساء الدواوين ، فكتابها • وهنالك أيضا مؤسسات المالية ، والجيش ، والشرطة ، والقضاء ، ولكل رؤسائها وموظفوها • وثمة وظائف كثيرة متنوعة استحدثت فيما بعد ، خاصة فى العصور السلجوقية والأيوبية والمملوكية لكنها تندرج جميعا ضمن هذا الهيكل العام •

ولن يتسع المجال للحديث عن هذه المناصب ، وقد كتب عنها الكثير فليس ثمة جديد وليس ذلك من مهمة هذا البحث • ولكن يتحتم الوقوف بعض الشيء ، انسجاما مع سياق البحث ، عند مسألتين يمكن

أن يضرب بهما المثل على حيوية الإدارة الإسلامية وقدره نظمها  
ومؤسساتها على الحركة والتكيف إزاء الضرورات والمتغيرات التاريخية،  
وهما ( الديوان ) و ( التعريب ) •

عندما كثرت أموال الدولة الإسلامية فى عهد الخليفة الثانى عمر بن  
الخطاب رضى الله عنه ، بسبب اتساع نطاق الفتوحات وتدفق الغنائم،  
أصبحت مسألة توزيعها بين المسلمين بشكل دقيق من المسائل الصعبة  
التي تقتضى إيجاد نظام جديد تقدير على أداء المهمة ، ولم يقف الخليفة  
حائرا إزاء هذه المعضلة فاستشار أصحابه من ذوى الرأى ، وفتح  
صدره لوجهات النظر المختلفة ، وتقبل فى نهاية الأمر اقتراحا يقول  
بضرورة العمل وفق النظام الذى سبق أن أخذ به الفرس والروم :تدوين  
الديون •• لضبط الأسماء وتنظيم الأعطيات وتجاوز الفوضى والارتباك •

ولم يشأ الخليفة رضى الله عنه أن ينفذ هذا ( النظام ) تنفيذا  
حرفيا ، فهو لم يتعامل معه سوى كأداة يمكن توظيفها للحاجات  
المستجدة لدولة الإسلام ، ورواية الطبرى المعروفة حول توزيع أسهم  
المسلمين والمسلمات فى أموال الدولة (٣) ، تبين لنا بوضوح كيف قدر  
عمر رضى الله عنه على استخدام هذا الجهاز الدقيق لتطبيق مفاهيم  
العدل الاجتماعى التى سعى جاهدا إلى تحقيقها فى المجتمع الإسلامى  
الجديد •

ولم يلتفت عمر رضى الله عنه للاعتراض الذى رأى فى الأخذ  
بالديون دفعا للعرب إلى إهمال نشاطهم التجارى أو عدم الاهتمام به ،  
ما دام الخليفة قد رأى فى الديوان ضرورة تحتها الحالة التاريخية التى  
كانت تمر بها الدولة الإسلامية •

ومنذ اللحظات الأولى نلتقى بصيغة مرنة فى التعامل مع مفهوم

---

(٣) تقويم الرسل والملوك ١٦٢/٤ - ١٦٣

الديوان ، ونجد توجهها نحو التخصص فى العمل ، فهناك ديوان الجند لتدوين أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء ، وهناك ديوان الخراج أو الجباية لتدوين ما يرد إلى بيت المال وما يعرض لكل مسلم من العطاء ، واستخدم الكتاب والموظفون لتسيير شؤون هذه الدواوين •

فى العصر الأموى فرضت المتغيرات الإدارية والحضارية عموما إغناء نظام الدواوين بالمزيد ، فظهر ديوان الرسائل للإشراف على الولايات والرسائل التى ترد من الولاة ، كما ظهر ديوان الخاتم الذى كان يعد من أكبر دواوين الدولة والذى كانت مهمته تنصب على نسخ أوامر الخليفة وإيداعها الديوان بعد ختمها بخاتم صاحب هذا الديوان، من أجل حماية الأوامر الإدارية العليا من التلاعب والتغيير ، كما أنشئ ديوان البريد الذى تطورت خدماته وبنيت الإدارية بمرور الوقت تطورا ملحوظا •

وفى العصر العباسى الأول اتسع نظام الديوان بشكل ملحوظ وزادت الدواوين عددا وتخصصا استجابة للمطالب المستجدة ، وتبرز فى هذا العصر ، فضلا عن الدواوين آنفة الذكر ، دواوين أخرى من مثل ديوان الدية ، وديوان الموالى والغلمان ( وتسجل فيه أسماء موالى الخليفة وعبيده ) ، وديوان الحوائج ، وديوان الأختام ، وديوان المنح أو المقاضاة ، وديوان الأكرة للإشراف على الترع والجسور وشئون الري •

ولكن أهم هذه الدواوين الجديدة ولا ريب كان ديوان الأزمة أو الزمام الذى أنشأه الخليفة المهدي والذى كانت مهمته جمع الضرائب وضبط حساباتها والإشراف على سائر الدواوين الأخرى من خلال دواوين أزمة فرعية يشرف كل واحد منها على أحد الدواوين المعروفة • كذا ابتكر العباسيون ، فى السياق نفسه ، ديوانا جامعاً سموه ديوان

النظر أو المكاتبات والمراجعات ، وينقسم إلى أربعة أقسام: ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال وينظر في الدخل والخرج .

وعندما ولي المعتضد الخلافة ( سنة ٢٧٩ هـ ) رأى أن يخطو خطوة أخرى فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض وكون منها ديوانا واحدا أطلق عليه « ديوان الدار » ويسمى أحيانا « ديوان الدار الكبير » . وقد قسم المعتضد الديوان أقساما ثلاثة : ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان السواد ( أى العراق ) .

وإلى جانب هذا استمرت عملية تشكيل الدواوين الجديدة ، ونحن نجد مثلا عبر هذا العصر دواوين لم تكن موجودة في فترات سابقة مثل : ديوان النفقات الذى كان ينظر في حاجات دار الخلافة ، وديوان المصادرين ، وديوان التوقيع الذى يتلقى رقاع أصحاب الحاجات ، وديوان الفض الذى يتولى فض الكتب الواردة من الأمراء والعمال إلى الخليفة ، وديوان الجهزة ، وديوان البر والصدقات .

وفى عهد الفاطميين بمصر أضيفت دواوين أخرى مثل ديوان الكسوة والطراز ، وديوان الأحباس ( أى الأوقاف ) ، وديوان الرواتب . الخ (٤)

ولم تكن حركة تعريب الدواوين بأقل دلالة على قدرة الدول الإسلامية على الاستجابة للتحديات من أجل التحقق بالمزيد من تحصين الذات .

كانت الدواوين تعتمد لغة أهل البلاد المفتوحة طيلة العقود الأولى

---

(٤) انظر حسن ابراهيم حسن . تاريخ الاسلام السياسى ١/٤٤٤ — ٤٤٨ ، ٢/٢٦٤ — ٢٦٥ ، ٣/٢٧٠ — ٢٧٢ ( الطبعة الخامسة والسادسة ) .



من الحكم الإسلامى ، فكان ديوان الشام يعتمد الرومية ( اليونانية ) ، وديوان العراق وبلاد فارس الفارسية ، وديوان مصر القبطية • ولا يعنى هذا أن الدواوين لم تكتب اطلاقا بالعربية ، فقد كان ديوان الجند الاسلامى بالمدينة يحرق بالعربية منذ زمن عمر رضى الله عنه ، وإنما كان ديوانا المال والجباية هما اللذين يكتبان بلغة أهل البلاد المفتوحة •

ولكن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، بمجرد أن استتب له الأمر ، أصدر أوامره بأن تكون اللغة العربية وحدها هى لغة الدواوين جميعها بقصد إيجاد الانسجام فى إدارة الدولة ، فنقل ديوان الشام من اليونانية إلى العربية ، كما أن الحجاج قام بنقل الديوان فى العراق من الفارسية إلى العربية ، أما ديوان مصر فتأخر نقله إلى أوائل عهد الوليد • ومن الجائز أن يكون سبب سرعة نقل ديوانى الشام والعراق دون ديوان مصر ، هو أن البلدين الأولين كانا عربيين منذ القدم •

ويرى ابن خلدون أن سبب تعريب عبد الملك الدواوين هو أن العرب فى زمنه كانوا قد انطلقوا من طور البداوة ، وأقبلوا على تعلم القراءة والكتابة ، ويرى أيضا أن الذى ساعد على اتخاذ خطوة التعريب هو أن اللغة العربية أصبحت فى متناول كثير من الكتاب فى البلاد المفتوحة — وهم الذين كانوا يملأون الدواوين — وبخاصة الموالى الذين أسلموا ؛ فمنذ عهد على رضى الله عنه ظهر بعض الموالى المهرة الذين كانوا يبحثون فى قواعد اللغة العربية وتبسيطها • كذلك سعى الحجاج عامل العراق لعبد الملك فى إيجاد ضوابط للغة العربية باستخدام التنقيط •

وقد كان من نتائج تعريب الإدارة فى الدولة الأموية أن أقبل كتابها من غير العرب على تعلم العربية لكى يستمروا فى عملهم بالدواوين

ولكن الخليفة حينما نقل ديوان الشام إلى العربية اضطر إلى عزل كتابه من الروم ، ويبدو أنه فعل ذلك لوفرة وجود كتاب من أهل الذمة يعرفون اللغة العربية . أما في العراق فقد أرغم الحجاج كتاب دواوينه على الكتابة بالعربية دون الفارسية . وعلى العكس ، تأخر نقل ديوان مصر حيث كان يكتب بالقبطية أو باليونانية أو بالعربية ، وإن كان الوليد قد منع نهائيا التحرير باليونانية وجعل العربية اللغة الوحيدة في الإدارة .

وهكذا أصبحت اللغة العربية لغة رسمية في جميع أجزاء الدولة ، مما مهد لتعريب السنة شعوبها بحيث غلب الخط العربي على خطوطها ، كما انعدمت أمامه بعضها مثل : الآرامية والسريانية والقبطية . كذلك أصبحت اللغة العربية لغة الدين في منطقة واسعة من البحر المتوسط ، ولم يقتصر الأمر على من تحول إلى الإسلام ، بل تعداهم إلى غيرهم من سكانها المسيحيين .

ولقد تباع خطوة تعريب الدواوين خطوة أخرى هامة ترمى إلى تقوية الحاكم الاسلامي بضبط ميزانيته واقتصادياته ، تلك هي تعريب العملة المتداولة في شتى أنحاء الدولة الإسلامية والتي كانت غالبيتها ما بين بيزنطية وفارسية . فلقد أصدر عبد الملك أوامره منذ عام ٧٥ هـ بأن تتولى الدولة بنفسها مهمة الإشراف على ضرب العملة ونقشها ، ونهى عن أن يضربها غيرهم . ولقد كان من بين الأسباب التي دفعت عبد الملك إلى اتخاذ هذه الخطوة تهديد قيصر الروم له بأن ينقش على الدنانير التي يتداولها أهالي دار الإسلام ما يكره عن النبي صلى الله عليه وسلم (٥) .

---

(٥) انظر عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ١٦٢/٢ — ١٧٠ ( الطبعة الثالثة ) .

وفى دائرة النشاط الاقتصادى : زراعة وتجارة وصناعة وحرغا ونشاطا ماليا ، نلتقى بحركة دائبة أسهمت فيها جل قطاعات المجتمع الإسلامى ، وضربت هثلا مشهودا على قدرة المسلم على الحركة فى صميم العالم ، واستثمار كنوزه وطاقاته ، وتنمية موارده من أجل توسيع مصادر الثروة والارتفاع بالمستويات المعاشية باستمرار .

لقد كان شعار المسلمين واضحا فى هذا الميدان ، مستمدا من كتاب الله نفسه ( فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ) (١) . إن عقيدتهم لا تجرهم صوب الفرار من الفعل الاقتصادى أو احتقاره ، ولكنها تدفعهم إليه دفعا ، بل تعتبر ممارسته جزءا من العبادة الشاملة التى يتقرب بها الإنسان إلى الله . ومع ذلك فإن الموقف الإسلامى ، هنا ، يتميز عن سائر المواقف فى حده الآخر ، ذلك أنه فى المجتمعات المادية عموما يصبح النشاط الاقتصادى هو الوسيلة والهدف وهو غاية الغايات التى يتحتم أن يتمحور حولها سعى الإنسان وكدحه فى هذا العالم ، بحيث إن كل الممارسات والمنازع الأخرى ، التى قد لا تقل التصاقا بالكوين البشرى ، تصبح أمورا ثانوية بالنسبة للنشاط الاقتصادى ، بل تصبح وسائل لتحقيق هذا الهدف . وإنه لمن المحزن أن يغدو الدين ، والقيم الخلقية ، والمناشط الجمالية ، أدوات مسخرة لخدمة هذا الطاغوت المادى المتحكم برقاب الناس والذى يدفعهم دوما إلى التكاثر بالأشياء والأموال دون حد يقف عنده أو شرط إنسانى يضع له المعالم والموجهات .

بل إن الأمر ليزداد تشنجا فى المذهب المادى الذى وضعه ماركس وإنجلز وتلامذتهما فيصبح الاقتصاد هو الإله المتحكم فى مصائر الناس ،

---

(٦) سورة الملك آية ١٥

وهو العقل الذى يسير حركة التاريخ ، والتاعدة التى تصنع القيم والتجارب والحضارات •

فى المجتمع الإسلامى يأخذ النشاط الاقتصادى حجمه الطبيعى ، يحتل مكانه الوسط كما هو الحال بالنسبة لكل المناشط الأخرى فى نسيج تجربة تنبثق عن رؤية وسطية إزاء كل المسائل والأشياء ، فلا هو الاحتقار والهروب الذى تمارسه بعض الأديان والمذاهب ، ولا هو بالتعبد والتأليه الذى تمارسه مذاهب وأديان أخرى •

صحيح أن العرب المسلمين تجنبوا ، فى العقود الأولى ، العمل فى بعض مناحى النشاط الاقتصادى ، وبخاصة الزراعة والصناعة ، بسبب انهماكهم فى الحروب ، وانصرافهم إلى السياسة والإدارة ، واكتفائهم المالى • بل إن بعضهم نظر — خطأ — إلى فعاليتات كهذه نظرة ترفع ، وربما ازدراء ، واعتقد أنها من عمل الفئات الأدنى منزلة فى سلم الحياة الاجتماعية ، لكنهم بمرور الوقت تخلوا عن موقفهم الخاطىء هذا ، ونزلوا إلى الأرض والمصنع ، فزرعوا وصنعوا ، وسرعان ما بلغوا فى نشاطهم هذا مرتقى صعبا •

أقد كان العرب قبل الإسلام تجارا ماهرين ، وها هم بعد مضى عقود على ظهور الإسلام ، يتمرسون مع رفاقهم المسلمين من غير العرب على ركوب متن الأنشطة الاقتصادية الأخرى : الزراعة ، والصناعة ، والنشاط المالى • • وتشهد الأرض الإسلامية ازدهارا اقتصاديا شـدد أنظار العالم ، واستقطب توجهه المادى فى المشارق والمغرب •

ولولا الممارسات السلبية ، وسياسات الابتزاز والاستغلال التى مورست بين فترة وأخرى ضد المزارعين والصناع والتجار ورجال المال من قبل بعض السلطات ومراكز القوى ، لكان التحصاد أكثر غزارة ، وذخائر الإنجاز الاقتصادى فى ميادينه كافة أكثر كثافة وارتفاعا • وفى

المقابل فإن هذه السلطات ومراكز القوى لم تحول — بإخلاص — أن تمد يدها الحاملين في الحقول الاقتصادية لتقديم الخدمات التي تمكنهم من تحسين وتطوير صيغ عملهم •

إلا أن مسيرة التاريخ الإسلامي شهدت على الجانب الآخر محاولات إيجابية مخصصة ، قادها بعض الخلفاء والأمراء وكبار الإداريين ، هدفها تحقيق أقصى درجات التنسيق بين الدولة والمزارع أو الصانع أو التاجر أو رجل المال من خلال تقديم الخدمات الفنية ، والضمانات الاجتماعية ، والحد من الضرائب ، ووقف صيغ الابتزاز في جباية الأموال •

وليست محاولات عمر بن عبد العزيز في العصر الأموي (٧) ، وهارون الرشيد وقاضي قضائته أبي يوسف ، مؤلف كتاب ( الخراج ) في العصر العباسي ، ونور الدين محمود في العصر السلجوقي (٨) ، سوى محاولات جادة من بين العديد من المحاولات على هذا الطريق ، لقد كان هؤلاء القادة يستلهمون مبادئ الإسلام وتطبيقات الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم ، في برامجهم الاقتصادية ، فكانت النتائج خيرا وغيرا انصب عطاؤه في خزائن الدولة وفي أيدي المواطنين على السواء •

وعلى العكس تماما ، فإن المظالم التي لحقت بالمزارعين أو الصناع والحرفيين في بعض الفترات ، على أيدي الإداريين المتنفذين ، أو الملاك المترفين ، والتي كانت تتناقض البداهات الإسلامية ما كانت تقود إلا إلى مزيد من العثرات في طريق الإنجاز الاقتصادي ومزيد من التمزق في النسيج الاجتماعي العام •

ومهما يكن من أمر فإن الأمة الإسلامية أثبتت ، من خلال نشاطها

---

(٧) و (٨) انظر بالتفصيل كتابي المؤلف : ملامح الانقلاب ص ١٠٩ — ١٥٠ ونور الدين محمود ص ٩٣ — ١٢٦

الاقتصادى المتنوع ، والمنضبط فى كثير من الأحيان بالقيم والمؤثرات الإسلامية ، إنها أمة جديرة بالحياة المستقرة الآمنة ، الكريمة ، التى بنتها بأذرعها وخبراتها ، ومنحتها الأرضية المادية الراسخة للتحرر من شد الضرورات والانطلاق صوب الآفاق الأبعد والأشمل والتى جاء الإسلام لى يقود الناس إليها •

ونستطيع من خلال استعراض سريع لبعض النصوص والأرقام والإحصاءات والشهادات أن نضع أيدينا على ما يؤكد صدق هذه المقولة ، ويفسرتها كن المسلمى من الأخذ بزمام المبادرة الاقتصادية فى العالم ، تماما كما كانوا قد أخذوا بزمام المبادرة فى الحرب والسياسة والثقافة وسائر مناحى الحياة •



## (٦)

أما فى دائرة النشاط الثقافى الشامل فإننا نلمح التوجه الإسلامى بشكل أكثر وضوحا باعتباره انعكاسا للأفكر والحياة والروح الإسلامية ، وحيثما تلتفتنا عبر معطيات هذا التيار وجدنا صبغة إسلامية بهذه الدرجة اللونية أو تلك .

لنأخذ مثلا العلوم الانسانية والآداب والفنون التى تشكل المساحة الأوسع فى دائرة الثقافة ، فماذا نجد ؟

المؤرخ وهو يبنى ( معرفته ) على أسس إسلامية ، ويقدم معطياته فى إطار إسلامى ، الجغرافى وهو يضرب فى الأرض ملقيا رؤيته على الظواهر والأشياء من منظور إسلامى ، بغض النظر عن الأخطاء الذاتية التى يقع فيها هذا المؤرخ أو الجغرافى أو ذاك .

الفيلسوف والمنطقى وعالم الكلام وهو يجاهد لكى يحقق الوفاق بين فلسفات الأقدمين وبين تصوره الإسلامى ..

المربى وهو يسعى إلى صياغة وتوجيه السلوك الفردى وفق مفردات الإسلام وقيمه ..

الأديب وهو يستمد من بحر العقيدة الجديدة الكثير من صيغه ومضامينه ..

الفنان وهو يبنى أو يرسم أو يشكل ما لا يمثل ارتطاما بمتطلبات الدين الجديد وتصورات ، وما يغنى هذه المتطلبات بالمزيد من القدرات ( التعبيرية ) المنظورة .

قد يحدث أن يشذ هذا المؤرخ أو الجغرافي أو الفيلسوف أو الأديب أو الفنان ، لكنها استثناءات للقاعدة الأوسع والأعرض ، ولن يؤخذ بها أو يقاس عليها •

والجال لا يتسع — هنا كذلك — لاستعراض تفاصيل وجزئيات المعطيات الثقافية كافة احضارة الإسلام ، ولا حتى للتأشير السريع على خطوطها العريضة ، فاقدر كتب في ذلك الكثير ونظمت المؤلفات المزدحمة في كل فرع من هذه الفروع • ولكننا نريد ، بعد وقفة قصيرة عند بعض جوانب هذه المعطيات ، أن نستخلص ونحن نتحدث عن خصائص الحضارة الإسلامية ، الملامح الأساسية للحركة الثقافية عبر التاريخ الإسلامي ، ونضع أيدينا على مؤثراتها الأكثر ديمومة وحضورا وانتشارا • الجوهر الذي يكمن خلف المظاهر والأشكال المتغيرة •

عموما فإن النشاط الثقافي يتمحور باتجاهات أربعة هي :

- ( أ ) العلوم بحقولها الثلاثة : الإنسانية والصرغة والتطبيقية (٩) •
- ( ب ) الفنون ( وقد تلحق بها الآداب وقد تكون ضمن حقول العلوم الإنسانية وهو الأرجح ) •
- ( ج ) حركة التربية والتعليم ومؤسساتهما •
- ( د ) العادات والتقاليد والميول والأذواق في أطرها الاجتماعية •

---

(٩) يجب أن نلاحظ أن العلوم الصرغة والتطبيقية إذا كانت تميل في معطياتها إلى الجانب المادي ( المذني ) فإنها في فلسفتها ومناهجها وتوجيهاتها ترتبط ارتباطا وثيقا بالجانب الثقافي ، ولذا يمكن أن تحسب على هذا الجانب الأخير دون حسم أو جزم •

واقـد نفذت الثقافة الإسلامية عبر التاريخ تغطية شاملة لهذه  
المحاور بكافة تفاصيلها وفروعها ومنحنياتها وجزئياتها ، فقدمت حشودا  
من الكتوف والخبرات والإبداعات والمعطيات ، ودفعت بآلاف الكتب  
والمصنفات ، وبنت وأنشأت المئات من المراكز والمعاهد والمدارس  
والجامعات والمؤسسات ، وخرجت عشرات الألوف من الأساتذة والباحثين  
والمؤلفين ، واحتضنت مئات الآلاف من الطلبة والدارسين عبر العصور •

وكان الشعار والدافع ، ها هنا أيضا ، إسلاميا فى معظم مساحاته:  
طلب العلم من المهد إلى اللحد •• ( الحركة ) من أجله فى مشارق الأرض  
ومغاربها كما علمهم رسولهم ومعلمهم صلى الله عليه وسلم ، وكما بين  
لهم ودفعهم كتاب الله وآياته البينات فيما سبق أن وقفنا عنده فى  
بدء هذا البحث •

ومن خلال نظرة سريعة على كتب ( التراجم ) التى تنص بها  
مكتبتنا التاريخية ، يتبين لنا بالأرقام والأسماء الواضحة المحددة  
الحشد الهائل من المثقفين أو طالبى الثقافة أو العاملين فى هذا الحقل  
أو ذاك من حقولها •• مئات الآلاف من الأسماء تتضمنها كتب التراجم  
فيما لم تشهد له مثيلا أمة من الأمم فى التاريخ القديم والوسيط ، إن  
هذا يحمل دلالة ( الإحصائية ) الواضحة على حجم التيار الثقافى  
الذى شقه المسلمون عبر التاريخ ، وعلى تدفق مياهه واتساع مجراه •

ومن خلال نظرة سريعة — كذلك — على ( مقدمات ) الألوف من  
المصنفات فى سائر مناحى العلوم والآداب والفنون التى كتبها أجدادنا  
المسلمون ، يتبين لنا بالدليل المشهود كيف أنهم كانوا يربطون تأليفهم  
ونمجزاتهم برؤيتهم الإسلامية ونظرتهم الإيمانية للعالم ، وتصورهم  
المتدين للكون والحياة والظواهر والأشياء •• كيف أنهم كانوا يبدأون  
علمهم باسم الله ، وينتهون منه بحمد الله : حتى وهم ينشطون فى

حقول الطبيعة والهندسة والحساب والجبر والكيمياء .. حتى وهم يتدارسون الفلسفة والهيئة وعلوم الأقدمين .. حتى وهم يبنون ، ويرسمون ، ويزخرفون ، وينشدون • فإنهم إذ وجدوا الإسلام يحرم أصنافا من الفنون قد تقود الإنسان ثانية إلى الخطأ أو الإذلال ، سعوا إلى تصعيد طاقاتهم الفنية باتجاهات أخرى فتفتنوا فى بناء المساجد البديعة والمدن الجميلة ، والزخارف الباهرة ، والخطوط التى تعزف وتغنى .. وما سمحوا لأنفسهم أن يغضبوا الله ورسوله ، أو أن يحدثوا فى نفوسهم وقناعاتهم الدينية شرخا قد يتسرب منه الازدواج ، والفساد ..

إن الانفصام النكد بين ثقافة المسلم وبين أصولها الدينية تقليد دخیل أرغمت عليه أجيالنا الحديثة والمعاصرة إرغاما .. جرعتة رغبا ورهبا كما يجرع المريض دواء مرا ، فمن خلال ( المدرسة ) و ( الجامعة ) و ( المنهج ) ، ومن خلال التربية والتوجيه الإعلامى والفكرى ، ومن خلال المسار الثقافى العام للقيادات الحديثة ، تمكن الغرب من فرض رؤيته العلمانية ، وأحياننا المادية ، على مساحات واسعة من علومنا وآدابنا وفنوننا وأنشطتنا التربوية ، وتحقيق له بعد جهد طويل لم يكلل بالنجاح الكامل لحسن الحظ ، إحداث هذا الفصام المشؤوم بين العلم والدين ، بين الثقافة بعامة وبين إطارها الإيمانى الذى تحركت من خلاله مواكب الآباء والأجداد عبر ثلاثة عشر قرنا أو يزيد ، دونما أى إحساس بالثنائية أو الازدواج ، بل على العكس ، بقدر معجز من التوحد ، وقدرة فذة على الإنجاز •

ما الذى قدمته الثقافة الإسلامية — عبر التاريخ — فى دائرة العلوم الإنسانية والصرفة والتطبيقية ؟

ما الذى أنجزته فى حقول العلوم الإسلامية ، من تفسير وحديث وفقه وكلام .. إلى آخره .. وعلوم اللغة والنحو والأدب ( بأنواعه كافة ) ، والتاريخ والجغرافيا والفلسفة والمنطق ؟ ما الذى كشفت عنه

في حقول الطب والصيدلة ، والفلك ، والهندسة ، والرياضيات ، والنبات ، والحيوان ، والكيمياء ، والطبيعة ؟ وما الذي نفذته في حقول العلوم التطبيقية ( التقنية ) المتخضة عن كشوفات العلوم الصرفة من أجل المزيد من الضمانات والتيسيرات للحياة البشرية ؟ وما الذي بنته ، وشكلته ، وزخرفته من مدن وعمارات ومساجد ومؤسسات ودور ومتنزهات ؟ وما الذي كتبه وغنته من قصائد وأزجال وأناشيد ؟ وما الذي أنشأته من مراكز التربية والتعليم ومؤسساتها ؟ وما الذي كانت تمارسه في أروقتها من نظم ومناهج وأساليب ؟ •

أسئلة مزدحمة لا تكون الإجابة عليها دقيقة وشاملة في الوقت نفسه إلا بالرجوع إلى ما تركته لنا القرون من بقايا ثروة ضخمة من الكشوف والمصنفات والآثار ، قد نجدها في كتاب ، وقد نجدها في عمارة لم تدرس بعد ، كما قد نجدها في المنقولات التي وصلتنا عبر تقلبات التاريخ . وقد نجد حصرا لها أقرب إلى الواقع العجيب من خلال بعض كتب الفهارس (١) التي وصلتنا وحدثتنا عما تم إنجازه في الحقول المختلطة بما يدعو للدهشة والإعجاب ، والذي لم يصلنا منه سوى الكسور والأعشار •

ولنتذكر — على سبيل المثال لا الحصر — ما شهدته الساحة الأندلسية ، « فإنه لم تمض أعوام قلائل على سقوط غرناطة ( ١٤٩٢ م ) حتى ارتكبت أسبانيا النصرانية جريمتها الشائنة بتدمير تراث التفكير الإسلامي • ففي سنة ١٤٩٩ أمر الكردينال خمينس ، مطران طليطلة ، بجمع جميع الكتب والآثار العربية من سكان غرناطة وأرباضها ، وتنظيمها أكادسا في ميدان باب الرملة ، أعظم ساحات المدينة ، ومنها كثير من

---

(١) انظر بخاصة : ابن النديم : الفهرست ، وحاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، وانظر كذلك : كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، وفؤاد شريكين تاريخ التراث العربي .

المصاحف البديعة الزخرف وآلاف مؤلفة من كتب الآداب والعلوم ، واحتفل بإحراقها ( بعمل من أعمال الإيمان ) ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب ، وهبت لجامعة الكالا ( القلعة ) • وهلك في تلك المحنة معظم تراث الأندلس الفكرى • وقد اختلف المؤرخون في تقدير عدد المخطوطات العربية التى ذهبت غريسة هذه الجريمة الشائنة ، فقدرها بعضهم بأكثر من مليون ، ولكن ( كوندى ) قدرها بثمانين ألفا ، وتقديره أرجح وأقرب إلى المعقول ، لأن المكتبة الأموية الشهيرة فى قرطبة ، لم ترد — طبقا لأصح الروايات — على ستمائة ألف مجلد ، وقد بددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر ، ولم يجتمع فى غرناطة مجموعة بهذه الضخامة •• ولكنها كانت وهى عاصمة الإسلام فى الأندلس تحتوى أنفُس الآثار العربية الأندلسية •• ولقد بلغت المجموعة العربية فى الأسكوريال — قريبا من مدريد — فى أوائل القرن السابع عشر نحو عشرة آلاف مجلد ، ولبثت هذه الآلاف العشرة من المخطوطات الأندلسية والمغربية فى قصر الأسكوريال زهاء نصف قرن ، وكانت أغنى وأنفُس مجموعة من نوعها فى اسبانيا • ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس الفكرى • خفى سنة ١٦٧١ ثبت النار فى الأسكوريال والتهمت معظم هذا الكنز الفريد ، ولم ينفذ منه أكثر من ألفين هى التى تتوى اليوم فى أقبية الأسكوريال » (١١) •

ولنتذكر كذلك ما فعله المغول فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية وما فعله الصليبيون فى الشام وفلسطين من تدمير وإحراق مئات الآلاف من الكتب ، وما شهدته مكتبة القاهرة فى إحدى الفتن الداخلية أيام المماليك حيث نهبها الناثرون ومزقوا كتبها واستخدموا جلودها نعالا لهم ، وألقى عدد منها فى النيل ، وحمل بعضها إلى شتى الأقطار ، وما بقى

---

(١١) محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام ص ٢٢٦ —  
٣٢٩ ( الطبعة الرابعة ) •

منها سفت عليه الرياح وتراكمت فوقه الرمال ، فتحول إلى تلال عرفت  
باسم تلال الكتب .. (١٢) •

مهما يكن من أمر فإنه إذا كان لا بد من تقديم الشاهد على بعض  
معطيات الثقافة الإسلامية ، غلنختر إحدى المحاور أو الحقول ، ولنقف—  
على سبيل المثال الموجز لا الحصر — عند شيء مما قدمته هذه الثقافة  
فى حقل العلوم الصرفة والتطبيقية ، أما الإنجازات بتفاصيلها فيمكن  
أن يجدها القارئ فى أكثر من كتاب ، مما سنحيله على بعضه •

فى الرياضيات أسهم المسلمون فى إغناء المعرفة الإنسانية ، وقد  
تابعوا دراسة علم الحساب إلى مدى بعيد ..

فالدولة الإسلامية تطلبت تقديرات حسابية لتنفيذ أحكام الزكاة  
والجزية والخراج وتقسيم الإرث كما نص على ذلك القرآن •

فى الجبر برز محمد بن موسى الخوارزمى ( توفى ٨٥٠ م ) الذى  
يعود إليه تأسيس علم الجبر ، وهو الذى تعمق فى هذا العلم إلى مدى  
أبعد من الإغريق ، وكتابه ( كتاب الجبر والمقابلة ) قدم للعالم تعبيرا  
خاصا عن هذا الفرع من الرياضيات .. ويعد كتابه أفضل كتاب فى  
مادة الجبر حتى الأزمنة الحديثة • وأدخل البتانى ( توفى ٩٢٩ م )  
النسبة فى علم المثلثات كما هى معروفة اليوم • وتبعه عالم عربى لامع  
فى الرياضيات هو أبو الوفا ( توفى ٩٩٧ م ) الذى اكتشف معادلة  
لجمع الزوايا .. وهو الذى اكتشف أيضا الخط الذى يقطع القوس •  
أما الهندسة فقد كانت متقدمة عند المسلمين وهم الذين استخدموها فى  
مجالات عملية كالمساحة وإنشاء طواحين الماء ، إضافة إلى استخدامهم  
إياها كثيرا فى أغراض الزينة فى فنهم • ولعل أهم إسهام للعرب فى

---

(١٢) انظر كتاب ( فصول فى المنهج والتحليل ) للمؤلف ص ٦١ — ٦٢

حقق الرياضيات كان إدخالهم الرموز التى سموها ( الأرقام الهندية ) •  
والمسلمون هم الذين بسطوها وجعلوها طيعة بحيث قبلها العالم على مر  
العصور •

فى الفيزياء عارض ابن الهيثم ( توفى ١٠٣٩ ) ، الذى برز فى علم  
البصريات ، إقليدس وبطليموس فى زعمهما أن العين ترسل إشعاعات  
إلى الأشياء المنظور فتمكن من رؤيته ، وأصر على أن عملية الرؤية تحدث  
عندما يرسل المنظور إشعاعات تدخل العين ، وقد وجد لدى تفحصه قدرة  
القمر على الإشعاع أن القمر ليس بالجسم الثقيل كالمراة ، ومن ثم  
اكتشف أن جميع الأجسام الملونة تعكس الضوء وأن الضوء واللون  
متطابقان • ولإثبات فرضياته قام بتجارب أدت به إلى اختراع آلة  
للتصوير • وتشير الأبحاث الحديثة فى مخطوطاته إلى أنه كان مدركا  
تمام الإدراك دور الرياضيات فى نظريته فى البصريات ، وقد خلاص  
الباحثون إلى اعتباره بكل جدارة مؤسس علم الفيزياء بالمعنى الحديث  
لللمة • أما البيرونى ( توفى ١٠٥٠ م ) فقد اكتشف عن طريق التجربة  
عددا من الجاذبيات المحدودة بوساطة ما أسماه ( الخروط ) ويعد هذا  
أول مقياس للإثقل النوعى • أما الخازنى ( توفى ١١٠٠ م ) فقد استخدم  
مقياسا الكثافة شبيها بذلك المقياس الذى استخدم قديما فى الإسكندرية  
للتجربى عن خواص السوائل كما بحث مشكوة كثافة الماء عند منتصف  
الكرة الأرضية ، تلك المشكلة التى تناولها بعينها روجر بيكون •

فى علم الفلك ، الذى لقى ترحيبا كبيرا لدى المسلمين بسبب  
اهتمامهم ( بعلم الميقات ) الذى يحدد مواعيد الصلوات واتجاه مكة المكرمة •  
برز عدد من العلماء منهم الفزارى ( توفى ٧٧٧ م ) الذى أنشأ الإسطرلاب ،  
ثم البتانى ( توفى ٩٢٩ م ) الذى قام ببعض الأرصاد الفلكية الهامة  
وبعض المقاييس ، وتبعه عمر الخيام ( توفى ١١٥٣ م ) الذى صمم  
تقويما جديدا هو التقويم الجلالى ، وقد أخطأ الخيام بيوم واحد فقط



فى كل خمسة آلاف سنة • أما أبو معشر (توفى ٨٨٦ م) فقد بحث بشكل دقيق فى العلاقة بين المد والجزر وحركة القمر • إلا أن أهم إنجازات المسلمين فى علم الفلك تتمثل فى تصميمهم المرصد • وعلى الرغم من أن الإغريق صمموا عدة أدوات فلكية ، منها الإسطرلاب ، إلا أن المرصد بشكله المخصص والمنظم لم يظهر الوجود إلا فى العصر العباسى •• وقد استخدمت فيه أدوات من مثل : ذات الربع ، والإسطرلاب ، والمحلق ، والكرات الهندسية •

وفى الكيمياء ( حيث لم يستطع الأقدمون التمييز بينها وبين الصيدلة لعدة قرون ) ، أجريت تجارب متقدمة وقطعت أشواطاً أكبر مما تكهن به الإغريق • وبرز عدد من الكيماويين كان من أبرزهم جابر بن حيان (توفى حوالى ٨١٥ م) الذى أجرى عدداً من التجارب على المواد العضوية الحيوانية والنباتية •• وسجل ملاحظاته وتجاربه التى أدت إلى تحضير حامض الآزوت لأول مرة فى التاريخ • وقدم وصفاً كاملاً لعملية تحضير الفولاذ وتصفية المعادن الأخرى ، وعملية صبغ الأقمشة ودباغة الجلود والدهان لصنع الملابس الواقية من الماء ، وكيفية حماية الحديد من الصدأ • كما عرف صناعة حامض الخل إلى جانب وصفه بدقة بعض العمليات الكيماوية كالتبلور والانحلال والتكرير •

وكان الرازى ، رغم شهرته فى ميدانى الطب والفلسفة ، ذا قدم راسخة فى مجال الكيمياء • إلا أن اهتمامه تركز على الكيمياء المختبرية أكثر من الكيماوية العامة وفرضياتها • وهو صاحب مذهب فى دراسة الكيمياء أخذ يوسع مجال المعرفة الكيماوية شيئاً فشيئاً بجهود الباحثين فى هذا المضمار • وقد استخدم عدة مواد فى تجاربه منها كل المعادن المعروفة فى عصره ، وهو أول من وضع نظاماً لتصنيف الحيوان والنبات والمعدن • وهناك أيضاً أبو منصور موفق أول كيماوى ميز بين كربونات الصوديوم وكربونات البوتاسيوم وقد شرح كيف يعطى الجص إذا

سُخِنَ نوعاً من الكلس لتضميد كسور العظام وتعرف هذه المادة اليوم  
بجص باريس وتستخدم كثيراً في الصناعة وبخاصة صناعة القوالب ••  
ولقد دأب الكيماويون المسلمون على تجاربهم بكل حرية إلى أن توصلوا  
إلى الكشف العلمية التي أدت بدورها إلى تطور الكيمياء بشكلها  
المعاصر •

في علم النبات نلتقي بعالم الطبيعة القرطبي أبو جعفر الغافقي  
( توفي ١١٦٥ م ) الذي قام بجمع مجموعات من النباتات من إسبانيا  
وشمال إفريقيا وأطلق عليها تسميات بالعربية والملايينية والبربرية  
ووصفها بدقة في كتابه ( الأدوية المفردة ) ، كما نلتقي بالصيدلي وعالم  
النبات العظيم ابن البيطار ( توفي ١٢٤٨ م ) الذي اعتمد في كتابه على  
أعمال الغافقي وارتحل إلى شمال إفريقيا وإلى سوريا باحثاً في حياة  
النباتات ، وقد ذاعت شهرته من خلال كتابيه ( المغنى في الأدوية المفردة )  
و ( الجامع في الأدوية المفردة ) اللذين يبحث أولهما في المواد الطبية  
ويبحث ثانيهما في الحيوان والنباتات والمواد المعدنية ذات الخواص  
الطبية • وقد صب عنايته على المعلومات التي زوده بها سابقوه ولكنه  
أضاف ثلاثمائة مادة جديدة إلى المواد المكتشفة سابقاً وعددها  
ألف وربعمئة •

في الطب اقتبس الأطباء المسلمون عن الإغريق النظريات الطبية  
التي لا تشكل قاعدة ثابتة ومرضية لعلاج المرضى، إلا أن الأطباء المسلمين  
ركزوا على الأمور العملية بدلاً من النظرية في العلاج الطبي ، وقاموا  
بكثير من الاكتشافات الطبية وأحرزوا تقدماً كبيراً في فن الاستطباب  
وكان من أشهر هؤلاء الأطباء الزهراوي ( توفي ١٠١٣ م ) الذي يضم  
كتابته ( التصريف لمن عجز عن التأليف ) قسماً عن الجراحة يعتبر أعظم  
إسهام في هذا الموضوع في القرون الوسطى ، والرازي ( توفي ٩٢٥ م )  
الذي كان أول من ميز بين مرضى الجدري والحصبة وذلك في كتابه ( في

الحصبة والجدرى ) ، أما كتابه الكبير ( الحاوى ) فيعتبر موسوعة طبية يلخص فيه معارف الإغريق والفرس والهنود فى الطب ويضيف بعدها ملاحظاته الشخصية . أما فى طب العيون فهناك على بن عيسى وعمار الموصلى ( وكلاهما عاشا فى النصف الأول من القرن الحادى عشر ) وقد ألف كل منهما الكتب حول الطب ووسعا دائرة المعرفة الطبية اليونانية وأضافا التعليمات العديدة حول إجراء العمليات كما أضافا ملاحظتهما الشخصية . وإلى الأطباء المسلمين يعود اختراع الأدوات الجراحية ونظام فحص المريض بشكل كامل ووصف العديد من الحالات الطبية والأمراض ، كما كانوا يملكون موهبة نظرية وعملية فى تصنيف علوم الطب وتقديم نتائجهم فى كتاب عملى واضح للطلاب وللأطباء معا . غير أن أكبر إنجاز طبي للمسلمين يتجلى فى إنشاء المستشفيات وإدارتهم إياها على أكمل وجه وفق نظام دقيق لا يزال يعمل به حتى الآن .

وفى علم الجغرافيا صحح المسلمون فى كثير من الأحيان معطيات الجغرافيا الإغريقية ، بعد قيام الرحالة المسلمين بكشفهم الجديدة فى الأصقاع البعيدة . وقد امتد شمول علم الجغرافيا العربى من الجزائر إلى الخالدات غربا إلى كوريا واحتمال وجود اليابان شرقا وأصدر الجغرافيون الكتب التى تصف الطرق والمدن الإسلامية ، وأسهموا فى توسيع مجال علم الجغرافيا . ومن أبرز هؤلاء المقدسى ( توفى ١٠٠٠م ) فى كتابه ( أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ) الذى تضمن بحوثا فى المناجم واللغات المحلية وعروق البشر والعادات القومية والديانات والأوزان والمقاييس . الخ . كما كان هناك جغرافيون هامون فى القرن العاشر هم البلخى والإصطخرى وابن حوقل . وعرف القرن الثانى عشر أعظم عمل جغرافى عربى منظم فى كتاب ( نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ) للإدريسى ( توفى ١١٦٦م ) الذى عمل فى بلاط الملك النورماندى روجر الثانى ملك صقلية فى باليرمو . ويضم كتابه العظيم أعمال الجغرافيين السابقين كما يضم المعلومات التى رواها الرحالة ، ويشير

الكاتب إلى افتراض أن الأرض كروية ... وبصورة عامة فإن أهمية الجغرافيين المسلمين تكمن في رسمهم الخرائط الجغرافية ووصفهم التفصيلي لمناطق خاصة — أى الجغرافية المحلية — ويعود اليهم فضل حفظ النظرية القديمة القائلة بكروية الأرض (١٢) .

أما في مجال العلوم التطبيقية فيكفى أن نشير إلى دور الحضارة الإسلامية في تطوير استخدامات الري والميكانيك ، وتحسين صناعة الورق ، وتكرير السكر ، واختراع البارود .. وغيرها كثير ..

وليس ثمة من داع لاستعراض ، أو حتى للإشارة إلى ، إسهامات المسلمين الكبيرة في حقول العلوم الإنسانية كالتاريخ والاقتصاد والقانون والسياسة والتربية والنفس ومناهج البحث والاجتماع والنظم الإدارية والآداب والفنون .. إلى آخره ، وتأثيراتها في مجرى الحضارات البشرية وبخاصة الحضارة الغربية ، فهي أوضح للعيان وأشد حضورا من أن يشار إليها أو يدلل عليها ..

ولنكتف — في ختام هذا المقطع — بالحديث عن بعض مراكز التربية

---

(١٣) لويس يونغ : العرب وأروبا ص ٧٢ — ٧٤ ، مقتطفات من ص ٩٨ — ١٠٦ وانظر عن إسهامات المسلمين العلمية بالتفصيل : جلال مظهر : أثر العرب في الحضارة الأوربية ص ٢٠٣ — ٣٥١ ، العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوربية ، د . أحمد عيسى : آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب ، د . على عبد الله الدفاع : إسهام علماء المسلمين في الرياضيات ، د . عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه عبر فروع : تاريخ العلوم عند العرب ، قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى في الرياضيات والفلك ، د . ياسين خليل : التراث العلمى العربى ، عبد الله الجرارى تقدم العرب في العلوم والصناعات ، حكمت نجيب عبد الرحمن : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، ادوارد جى براون : الطب العربى ، د . توفيق الطويل : العرب والعلم ، اندوميلى : العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمى ، كارلو نلليو : علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، ماجد عبد الله الشمى : مقدمة لعلم : الميكانيك في الحضارة العربية ، دائرة المعارف الإسلامية .. الى آخره .

والتعليم لنرى كيف أنه فى المنظور الإسلامى يلتقى ما هو دينى بما هو دنيوى •• الإيمان والعلم •• الروح والجسد •• الغيب والطبيعة فى كل واحد متماسك ، فى نسيج تختفى فيه السدى واللحمة ، عبر تقليد ثقافى أصيل يغدو فيه المسجد مدرسة للتنقيب فى الأرض ، ويصير العلم وسيلة للطموح إلى السماء •

كان المسجد أعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه واللغة وغيرها من العلوم ، وأصبح كثير من المساجد مراكز هامة للحركة العلمية منذ لحظة إنجاز المسجد الأول فى المدينة وطيلة القرون التالية • ونحن نذكر كيف أصبح الأزهر ، الذى بدأ كغيره من المساجد ، جامعة يدرس فيها التوحيد والفقه واللغة والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم ، وكيف أصبح مسجد القرويين فى فاس بالمغرب مركزا هاما للثقافة الإسلامية ، كما أصبحت هذه الجامعة شاهدا على حرية التعليم وعلى طرق التدريس ومراحل التعليم وتخصيص كراسى الأستاذية وشروط التعيين فى وظائف التدريس ومراسيم تعيينهم ودرجاتهم العلمية والإجازات الفخرية ومجالس أوصياء الكليات ، والمساكن الجامعية للأساتذة والطلاب ، والمكتبات الجامعية • وفى هذه الجامعة الإسلامية وضع أساس التقاليد الجامعية التى تسير عليها الجامعات فى الأمم الراقية كحفلة افتتاح الدراسة ، وحفلة التخرج وغيرها ، وقد خرجت هذه الجامعة طائفة من العلماء الذين تفوقوا فى مختلف العلوم والفنون • وقد جذبت مساجد قرطبة الأوربيين الذى وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والالتزود من الثقافة الإسلامية ، ومن ثم ظهرت فيها طائفة من الفقهاء والعلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين وغيرهم •

ومن معاهد العلم « الزاوية » وهى مأخوذة من الفعل انزوى ، بمعنى اتخذ زكنا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد • وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المعتكفين إلى هذا الانزواء فأنشأوا لهم مساكن

ملحقة بالمسجد ، كما نشاهد ذلك ماثلا حتى الآن ببعض مساجد فاس والقاهرة • ثم تطورت الزوايا فيما بعد إلى أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة في شكل دور أو مساجد صغيرة يقيم فيها المسلمون الصلوات الخمس ، ويتعبدون فيها ويعقدون بها حلقات دراسية في علوم الدين وما يتصل بالدين من العلوم العقلية والنقلية • وفي القرن الثامن الهجري انتشرت الزوايا في المغرب وأُسِّت بها كتاتيب لتحفيظ القرآن وتعليم الدين ومبادئ العلوم ، الأمر الذي حدا بملوك بني مرين إلى أن يطوروا هذه الكتاتيب إلى مدارس وكرليات ليسهموا في الحركة العلمية بجانب جامعة القرويين بفاس • وقد تطورت الزوايا بالمغرب في القرن التاسع الهجري حين اشتدت وطأة النصاري على المسلمين في الأندلس ، وامتدت أطماعهم إلى احتلال السواحل المغربية • ولما ضعفت الدولة عن الدفاع عن البلاد أخذت الزوايا تدعو إلى الجهاد ومقاومة الأجنبي ، وبلغت أوج ازدهارها في القرن العاشر الهجري ، واستطاعت أن تجلس على العرش أسرة الثرغاء السعديين وأن تقف معهم جنبا إلى جنب في الجهاد ضد النصاري المحتلين ، وقد وفقت هذه الزوايا إلى طردهم من بعض الثغور المغربية • ولم تكن هذه الزوايا بمعزل عن بعضها على الرغم من اختلاف مواقعها وإنما كان يجمع بينها التزاور في حل المشكلات الاجتماعية •

ولم يكن « الرباط » يقل أهمية عن المسجد والزوايا من حيث كونه مكانا تشع منه الدعوة إلى الإسلام وينمو النشاط العلمي • فقد كانت حدود العالم الإسلامي في بعض جهاتها معرضة للخطر من قبل الأعداء ، ولكي يحمي المسلمون أنفسهم من إغاراتهم المتعددة أقاموا الحصون في بعض المدن الواقعة عند التخوم • وكان العلماء والشعراء الذين يؤثرون حياة الراحة يلجأون إلى هذه الثغور لتفريغ للدرس والبحث • ومما زاد في اتساع الحركة العلمية هناك أن الخلفاء كانوا يختارون القضاة بالذات لقيادة الجهاد في تلك الثغور • ويمتاز الرباط بطابعه الحربي بالإضافة

إلى وظائفه الدينية من العبادة وتلاوة القرآن والتفقه فى الدين ، وهو بذلك لا يختلف عن « الرابطة » إلا من حيث كونها تبتدىء حيث ينتهى فتجعل هدفها الأول العبادة وتحصيل العلم ، وتهىء الرابطين فيها بعد ذلك للجهاد ، على ما نجده فى رابطة عبد الله بن ياسين الجزولى جنوب المغرب ، وقد اجتمع فى هذه الرابطة نحو ألف من رجال قبيلة صنهاجة المغربية فكان عبد الله يعلمهم أمور الدين أولا ثم أمور الجهاد فى سبيل نشر الدين الحنيف . وقد تطور أمر عبد الله وتلاميذه إلى أن أسسوا دولة الرابطين التى وحدت المغرب وعبرت إلى الأندلس لتدافع عنها ضد الهجمات المسيحية العنيفة وتمد فى عمرها قرونا أخرى .

وانتشرت « المدارس » فى العصر السلجوقى ، وقام نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقى ( ٦٥٠ - ٤٨٥ هـ ) بتأسيس المدرستين المشهورتين اللتين تعرفان باسمه فى بغداد ونيسابور وتعرف كل منهما باسم المدرسة النظامية ، كما أسس نظام الملك المدرسة الحنفية فى بغداد . وكان الإمام الغزالى يقوم بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد ثم فى نيسابور فى أواخر القرن الخامس الهجرى . ولما زار السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك بغداد سنة ٤٧٩ هـ زار الوزير المدرسة النظامية وجلس فى خزانة كتبها وطالع بعض الكتب وألقى على الطلاب درساً فى الحديث وأملئ عليهم جزءاً آخر ، كما أجرى هذا الوزير الجرايات والمخصصات المالية على مدارسه . وفى عصرى نور الدين محمود وخلفه الناصر صلاح الدين انتشرت المدارس فى الشام وفلسطين انتشارا ملحوظا وكانت تدرس المذاهب الفقهية وسائر العلوم الأخرى المتعلقة بالقرآن والحديث واللغة . . . وغيرها ، وكانت معظم هذه المدارس تضم مكتبات عامرة بلغ بعضها عشرات الألوف من المجلدات .

وقد اهتم المسلمون بنشر العلوم الطبية فأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات و « البيمارستانات » ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية

التي يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد في موسم الحج ، حيث يعرضون نتائج أبحاثهم كما يعرضون نباتات البلاد الإسلامية ويصفون خواصها الطبية . وقد أصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم مراكز الثقافة الطبية الإسلامية . وقد وضع بعض الخلفاء والولاة والأمراء في المساجد خزائن للأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباء لإسعاف المصلين ، وبنوا البيمارستانات للمرضى وأباحوها للناس من غير تمييز في الأديان والمذاهب وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل (١٤) .

وكانت « المكتبات » و « دور الحكمة » مراكز إشعاع أخرى للثقافة الإسلامية فعندما نشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي ، وتقدمت صناعة الورق ، تبع ذلك ظهور كثير من الوراقين العرب الذين يقومون بنسخ الكتب ، واتخذ العلماء والأدباء أماكن يجتمعون فيها للترؤد من العلم فكثرت المكتبات التي تترى بالكتب الدينية والعلمية والأدبية وغيرها . وقد عمل الخلفاء العباسيون على إمداد بيت الحكمة — الذي وضع هارون الرشيد أساسه — بمختلف الكتب ، وظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى التتار على بغداد سنة ٦٥٦ هـ . وقد أبيع للناس كافة الانتفاع بهذه الدور والمكتبات وأخذ ما يحتاجونه من مواد وأقلام وأوراق دون مقابل . وكان « الوقف » الإسلامي عاملا مهما في إغناء هذه المؤسسات بالكتب والمواد وتمكينها من أداء خدماتها على أحسن وجه (١٥) .

---

(١٤) انظر : نور الدين محمود للمؤلف ص ١١٣ — ١١٤ للاطلاع على طبيعة العمل والخدمات في إحدى البيمارستانات الكبيرة في دمشق .  
(١٥) د . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ٤/٢١ — ٤٣٣ حيث يقدم عرضا مسهبا عن المراكز الثقافية والتربوية ومنها اختصرت الفقرات الخاصة بالموضوع .



## ( ٧ )

والآن ، ما هي الوظائف الأساسية التي نفذتها الحضارة الإسلامية على مستوى العالم ؟ ما هو الدور الذي لعبته في الصيرورة الحضارية الشاملة للتاريخ البشرى ؟ •

اقتد امتد ( الفعل الحضارى الإسلامى ) لى يغطى اتجاهات ثلاثة انضفرت فى نهاية الأمر لى تعزز الوجود الحضارى الإسلامى وتغنيه من جهة ، ولى ترغد مجرى الحضارات البشرية بالعطاء المتنوع الواحد من جهة أخرى •

فأما أولى هذه الاتجاهات فتمثل فى احترام الحضارة الإسلامية للتراث الحضارى البشرى الذى سبقها وعاصرها •• ولم يكن العقل الإسلامى الجديد بالذى يتشنج فى دائرة الذات وينقل على حدود الأنا •• بل لقد علمته العقيدة التى أعادت تشكيله تقاليد الانفتاح المرن على كل حضارة أو إنجاز ما دام أنه قد يتضمن جانبا من الحكمة التى يتحرق هذا العقل بحثا عنها •• ولقد أصبحت هذه التقاليد بالنسبة إليه ممارسات يومية ، وعادات سائدة ، امتدت لى تغطى مسيرته الطويلة •

لم يكن هذا ( العقل ) يرغب معطيات ( الغير ) ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يكن يتقبلها بالكلية •• لقد كان يملك فى تركيبه الخاص ، ومن خلال منظوره العقيدى ، المقاييس الدقيقة والموازن العادلة التى يمرر من خلال تلك المعطيات خيعرف جيدا ما يأخذ ، ويعرف جيدا ما يدع ••

إنه كان يمارس عملية بناء الذات الحضارية ، مستفيدا إلى أقصى حد ، من خبرات الآخرين ، ولكن لم يحدث أبدا أن أقحم فى مجرى التحقق الكبير هذا عناصر وأجساما غريبة لا تملك القدرة على

الانسجام مع نسيج الحضارة الجديد والتناغم مع حركة نولها وهو يروح ويجىء بإيقاع ، متناسق واحد ..

كل الحضارات البشرية ، سواء انبثقت عن رؤية دينية ، أم موقف وضعى ... صاغها المؤمنون أم صنعها الكفار .. كانت تجد فى حضارة الإسلام صدرا رحبا .. ولكن أيا من عناصرها ما كان يسمح له بالدخول ما لم يكن يحمل جواز السفر الذى يتيح له أن يصل إلى هناك بالأسلوب المشروع ..

كل الحضارات العالمية : يونانية ورومانية وبيزنطية وهلينية وفارسية وهندية وتركية وصينية وتراث الجماعات والشعوب التى عاشت فى المنطقة : آرامية ونبطية وقبطية وغيثية .. إلى آخره .. كانت — جميعا — بمثابة حقول مفتوحة جال فى أطرافها العقل الإسلامى ، فأخذ ورفض ، وانتقى ومحص واختبر ، وعزل واستبعد وفصل .. وعرف ، وهو يتجول عبر هذه الحقول الشاسعة ، ما الذى ينسجم ونبعه الصاعد ويزيده دما وحياة ، وما الذى يحمل جراثيم المرض والهزال ، والدم الأزرق الفاسد ، فكان يعرف جيدا كيف يرفض هذا ويأخذ ذاك .

لم يكن مجرد اقتباس ، ولكنه هضم وتمثل وتطعيم مرسوم هدفه الخروج على الناس بألف نوع من الفاكهة والثمار .. مختلفة الأشكال والطعوم ولكنها تسقى بماء واحد ..

إن هذا الموقف الحضارى المتبصر ، المرن ، الموزون .. حقق مردوده الإيجابى الفعال ليس على مستوى الحضارة الإسلامية فحسب ، ولكن عبر نطاق الحضارات جميعا .. العناصر الطيبة الصالحة فى هذه الحضارات بعبارة أدق .. وهو خلال هذا كله إنما كان يؤدي وظيفة لم تلعبها من قبل حضارة أخرى بهذه السعة والعمق : حماية التراث

الحضارى البشرى وتمكينه من البقاء بمواجهة تحديات السقوط والنسيان والفناء ..

يقول لويس يونغ « وهكذا أصبح المسلمون فى المناطق الجديدة لامبراطوريتهم على صلة تامة بحضارة واسعة تضم بين ظهرانيها أدبا واسعا مكتوبا باليونانية والسريانية والبهلوية ، إلى جانب استيعاب للعلوم لم يكن لعرب الجاهلية أن يعرفوه ... لقد صبت جداول كثيرة فى نهر الحضارة الإسلامية ، ولعل أشدها تأثيرا راغد الحضارة الهيلينية ، ثم الحضارة الفارسية التى أثرت فى الفكر السياسى والعادات الاجتماعية ، والحضارة الهندية التى أسهمت فى علوم الطب والفلك وبخاصة فى الرياضيات حيث أخذ العرب الأرقام الهندية . وقد أخذ العرب بعض التنظيمات الإدارية والسياسية التى كانت قائمة فى البلدان المفتوحة مثل ( ديوان الحسبة ) الذى هو امتداد للمؤسسة البيزنطية ، وفكرة ( المصلحة العامة ) التى هى امتداد لـ *Utilitas Publica* فى التشريع الرومانى . كما أخذوا بعض المناصب السياسية مثل ( الوزير ) من الفرس .. ولقد فتح ( العرب ) أبوابهم على اتساعها لاستيعاب المعارف والثقافات القديمة من يونانية وغيرها مما قاد إلى نهضة كبرى فى مجال الترجمة .. ولعل من أهم دوافع الترجمة هو حث الإسلام على المعرفة ودعوته لتلقى العلم وجعل ذلك أمنية عظمى فى الحياة .. وقد تعرف المسلمون من خلال الترجمة على جوهر الفلسفة القديمة والطب والعلوم الطبيعية اليونانية .. وهكذا كان مجال الترجمة واسعا ، حتى أن الكثير من الأعمال اليونانية وصلت إلى أوروبا عن طريق الترجمة العربية فقط لأن النسخ انيونانية الأصلية فقدت .. إن تطوير المسلمين للتراث اليونانى هو واحد من أهم حلقات التاريخ

الثقافى فى العالم • وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة » (١٦) ••

ويقول غرونبوم • « وكانت نتيجة هذه الخصومة والتنازع أن خرجت إمكانيات الإسلام الفلسفية والعملية إلى حيز الفعل • • وعبروا عنها من جديد فى صيغ مقبولة لدى ممثلى التقاليد الأقدم عهدا التى كان على الحضارة الدينية الجديدة أن تتعامل معها • فالتفكير الإدارى والسياسى من فارس، والطرائق الهلنستية فى التفلسف والعلم الدنيوى ، والطب والرياضيات من الهند ، كل ذلك قد تمثلوه واسنوعوه بغير عناء • وإن التجريب اللغوى لكل ما اقتبسوه من هذه الأمور ساعد على تمثلها • وحينما توضع وجهة النظر الأجنبية فى داخل إطار إسلامى وبتعابير إسلامية يكون الإحساس بها إسلاميا صادقا • ومن جهة أخرى فإن التوضيح التدريجى بحقائق الدين الأولى ولما تشتمل عليه من ملابسات ثقافية ، أخذ يساعد على توسيع الأساس الذى يقوم عليه التبادل بين الحضارات • وهكذا نجد أن ازدهار الحضارة العباسية بين ٧٦٠ — ٨٤٠م إنما يمثل امتزاجا ثانيا للحضارة الإسلامية، وقد فسخوا المجال فيها للتقاليد ( المحلية ) التى استمدوا جزءا منها من الكتب ، إلا أن معظمها دخل فى التركيب الجديد عن سبيل حقائق التعايش الفعلى •• » (١٧) •

ويقول دى لانس أوليرى « لقد أصبح العرب ، بحكم كونهم حكاما لـسوريا ، على اتصال بثقافة متطورة إلى حد بعيد ، استخدموها فى عدة مجالات : فى بناء المجتمع والنظام الاجتماعى بشكل عام ، وفى الفنون والحرف ، وفى الحياة العقلية • وكان الأثر الإغريقى وثيق

---

(١٦) العرب وأوربا ، ص ٣٤ — ٣٦ (مقتطفات) •  
(١٧) الوحدة والتنوع فى الحضارة الإسلامية ، تأليف عدد من المستشرقين ، تحرير جى • نى • غرونبوم ص ٣٨ — ٣٩

الصلة بهم ، إلا أن العنصر الفارسي كان أوثق صلة ... وهكذا فقد كانت هذه الفترة ( الراشدية والأموية ) فترة إحياء دائم إلى حد ما ، أخذت خلالها العناصر المختلفة عن العرب لغة جديدة ودينا جديدا ، وتساوت الآن في ظل الخلافة والتحمت فيما بينها في حياة مشتركة . ومهما بلغت شدة الخلافات الطائفية والسياسية فيما بعد ، فقد ظلت سيادة الإسلام تنشر لواءها مدة طويلة ، ولا تزال كذلك إلى حد كبير وتتمتع بحياة مشتركة ، بمعنى أنه يوجد تفهم واسع بين مختلف الأنحاء . وهكذا استطاع التأثير الفكري أو الديني أن ينتقل بسرعة من أحد الأطراف إلى الطرف الآخر ، كما أن واجب الحج إلى مكة قد أدى الكثير في تفتح الحياة المشتركة في نفوس هذه الجماعة وترويج الحوار بين مختلف أجزاء العالم الإسلامي . فالحياة العامة في الإسلام هبنة إلى حد كبير على استعمال اللغة العربية كوسيلة في الحياة العامة . . . وكان هذا ذا أثر في منتهى الفعالية قبل إدخال عناصر كبرى من الأتراك والهنود الذين لم يصبحوا قط من الناطقين بالعربية ، فكان هذا السبب هو الذي جعل الجماعة الإسلامية الناطقة بالعربية وسيلة مناسبة للنقل الثقافي ... » (١٨) .

ويقول « كانت أولى وأكثر دلائل التكيف الجديد في الفكر الإسلامي هو الإنتاج المتزايد في ترجمة الكتب التي تعالج المواضيع الفلسفية والعلمية إلى العربية . وكانت حصيلة ثمانين عاما من بعد سقوط الأمويين امتلاك العالم الناطق بالعربية نسخا عربية لأكثر كتب أرسطو بطليموس وكبار شراح الأفلاطونية المحدثة وبعض آثار أفلاطون ، والقسم الأعظم من أعمال جالينوس ، ومؤلفات أخرى في الطب .

وشروحها ، وكذلك بعض الكتب اليونانية العلمية الأخرى وكتبها هندية  
وفارسية عديدة ... » (١٩) •

ويقول غوستاف لوبون « كلما أمعنا في درس حضارة العرب  
وكتبهم العلمية واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق  
واسعة ، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون  
الوسطى لعلوم الأقدمين ، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها ، مدة  
خمس قرون ، موردا علميا سوى مؤلفاتهم ، وأنهم هم الذين مدنوا  
أوروبا مادة وعقلا وأخلاقا • وتأثير العرب عظيم في الغرب ، وهو في  
الشرق أشد وأقوى » (٢٠) •

ويقول « الحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني  
القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد ، ويفضل هذه الترجمة  
أطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها ككتاب أبولونيوس  
في المخروطات وشروح جالينوس في الأمراض السارية ورسالة أرسطو  
في الحجارة ، الخ • وإنه إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها  
بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون  
الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان ، فعلى العالم أن يعترف  
للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة ، اعترافا أبديا ، قال  
مسيو لييرى ( لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة  
أوربة في الآداب عدة قرون ) • وعرب الأندلس وحدهم ، إذن ، هم  
الذين صانوا العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان ، حتى في  
القسطنطينية ، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن بلاد يمكن الدرس فيها  
غير الأندلس العربية ، وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعاً ، وإلى بلاد  
الأندلس كان يذهب أولئك النصارى القليلون لطلب العلوم في الحقيقة

(١٩) نفسه ص ٩٣

(٢٠) حضارة العرب ، الطبعة الثالثة ص ٢٦

•• ولم يظهر في أوروبا ، قبل القرن الخامس عشر من الميلاد ، عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب وعلى كتب العرب وحدها عول روجر بيكون ونيانورد البيزي وأرنود الفيلنوفي وريمون لول وسان توما والبرت الكبير والأذفونش العاشر القشتالي •• الخ » (٢١) •

وجاء في كتاب ( الحضارة الأوربية سياسية واجتماعية وثقافية ) لمؤلفيه أساتذة الفلسفة جيمس وستفال توسون وفرانكلين شارلز بام وغان فومستراند « في خلال قرنين نقل إلى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي على التقريب • وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقيه •• وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب إلى أوروبا الغربية في أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر •• وتسابق الرجال من ذوى العقول اليقظى إلى بلارمة وطليلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية مثل أديلارد أوف بات ودانيال أوف مورلى وروجر أوف هيرفورد واسكندر نكوام • وكانت رسالة اديلارد أوف بات ودانيال أوف مورلى وروجر أوف هيرفورد واسكندر نكوام • وكانت رسالة اديلارد أوف بات في المسائل الطبيعية أول مؤلف علمى أنتجته أوروبا الغربية في القرون الوسطى ، وقضى بعض الطلاب سنين عدة في أسبانيا ثم قضوا أعمارهم كلها في هذا العمل المقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللغة اللاتينية •• وعلى هذا النحو كانت أوروبا قد أستولت في مستهل القرن الثالث عشر محصول العلم الإغريقى والعربى بجذافيره •• » (٢٢) •

وليست هذه سوى نماذج ، وهناك غيرها مئات الشواهد بل ألوفها ••

---

(٢١) نفسه ص ٥٦٨ — ٥٦٩

(٢٢) عباس محمود العقاد : اثر العرب في الحضارة الاوربية ، الطبعة الثانية ، ص ٤٥ — ٤٦

لكن الحضارة الإسلامية لم تقف عند هذا الحد .. كانت هناك وظيفة أخرى تنتظرها ، وتعد بمثابة النتيجة المحتومة لشروط قد توفرت سلفا ، ولقد أحسن تنفيذها حقا الإضافة والتجديد والإغناء وإعادة التركيب لمعطيات حضارية كانت بأمس الحاجة للتغيير والتبديل وتوسيع نطاق البناء ، بعد إذ لم تعد صالحة تماما لحاجات العصر الجديد ومطالب الإنسان المؤمن الجديد .

إن كثيرا من القيم الحضارية القديمة كانت يومها قد أصبحت أمرا ( رجعيا ) وكانت حركة الإسلام ( التقدمية ) تقضى بضرورة تغييرها واستبدالها بعناصر جديدة أكثر صلاحية وانسجاما مع إيقاع الحياة التي صاغها الإسلام .

ليس هذا فحسب ، بل إن العقل الإسلامى المتحضر قدر على أن يكتشف ويبتكر عناصر وقيما حضارية جديدة بالكلية ، وأن يقدمها للعالم ثمارا يانعة لجهده الخاص ، فليس كل ما صنعه المسلمون هوجماية التراث الحضارى القديم ، وإعادة شرحه وتفسيره ، وإضافة بعض الشروح والهوامش عليه .. وكأن ذلك التراث هو الطريق الوحيد لكل إبداع حضارى ، وكأنه حتمية مقفلة لن يستطيع عقل أن يثذ على مواضعاتها ويخرج عن حدودها المرسومة ..

أقد أبدع العقل الإسلامى ، ابتداء ، قيما جديدة ، وابتكر واكتشف الكثير الكثير من المعطيات والنظم الحضارية التى كانت بمثابة الأسس التى بنت عليها قيما بعد حضارات أخرى فى مشارق الأرض ومغاربها .

وهكذا فإن الدور ( الإغنائى ) للحضارة الإسلامية يتوجب أن يعالج من خلال هذا المنظور الواسع ، وألا يغط حقه وهو يقلص-، لهذا السبب أو ذاك ، لكى يغدو مجرد تابع أمين وذكى لمعلمى اليونان القدماء، تقدير على فهمهم وطاعتهم وشرح غوامضهم .. وليس ثمة وراء هذا أية



محاولة للنقض والهدم والتبديل .. أو لإبداع قيم ومعطيات وتقاليد جديدة لا علاقة لها ألبتة بحضارات الأقدمين . ولقد كانت الرؤية الجديدة قدירה على الخلق والابتكار وكان العقل الإسلامى جديرا بالمهمة .. وهكذا صنع الذى صنع .

والشهادات عن دور الحضارة الإسلامية فى إغناء الحضارات البشرية ، والإضافة عليها ، وارتداد الآفاق المجهولة ، واكتشاف القيم المعرفية والتجريبية الجديدة ، كثيرة غزيرة .. صدرت عن كتاب ودارسين وعلماء وأكاديميين شرقا وغربا ، بحيث يصعب على المرء أيها يأخذ وأيها يدع .. ولكن لا بأس فى اقتباس نماذج فحسب من هذا الخضم العميق لكى تكون بمثابة مؤشرات على درب العطاء الطويل .. لويس يونغ . « إن تطوير المسلمين للتراث اليونانى هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافى فى العالم . وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة . يجب أن لا تغيب عن ذهننا — إذ نناقش ونقيم الحضارة الإسلامية — تلك الأفكار المبدعة التى جاءت من الجزيرة العربية مع الإسلام وقبله ، واستطاع المسلمون أن يمزجوا بها التراث اليونانى فيصنعوا من ذلك لونا جديدا سباقا فريدا » (٣) .

« ما الذى تركته حضارة العرب والمسلمين فى أوروبا ؟ لقد تركت بصماتها على جميع المستويات ابتداء بالفولكلور كراقصى الموريش الإنكليز الذين هم فى الحقيقة قناع لراقصى البربر ، وانتهاء بالعلوم حيث يستخدم ملاحو الفضاء اصطلاحات عربية مثل السميت Asimuth وسمت الرأس Senith . وهناك فى خرائط القمر أكثر من موقع أطلق عليه أسماء لبعض العلماء العرب : كالزركلى والبتانى وأبى الفداء .

ان أشياء كثيرة لا يزال على « الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية » (٢٤) .

سارتون : « حقق المسلمون، عباقرة الشرق، أعظم المآثر في القرون الوسطى . فكتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية . وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادى عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشرى ، حتى لقد كان ينبغى لأى كان إذا أراد أن يلم بثقافة عصره ، وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية . ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها » (٢٥) .

سيدبو : « تكونت فيما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف الثقافية في التاريخ . وظهرت منتوجات ومصنوعات متعددة واختراعات ثمينة تشهد بالنشاط الذهنى المدهش في هذا العصر . وجميع ذلك تأثرت به أوروبا بحيث يؤكد القول إن العرب كانوا أساتذتها في جميع فروع المعرفة . لقد حاولنا أن نقلل من شأن العرب . ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميع الأرجاء . وليس من مفر أمامنا إلا أن نردلهم ما يستحقون من عدل إن عاجلاً أو آجلاً » (٢٦) .

دريير : « ينبغى على أن أنعى على الطريقة الرتيبة التى تحايل بها الأدب الأوروبى ليخفى عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا . أما هذه المآثر فإنها على اليقين سوف لا تظل كثيراً بعد الآن مخفية عن الأنظار . إن الجور المبني على الحقد الدينى والغرور الوطنى لا يمكن أن يستمر إلى الأبد » (٢٧) .

نيكلسون : « إن أعمال العرب العلمية اتصفت بالدقة وسعة الأفق . وقد استمد منها العلم الحديث — بكل ما تحمل هذه العبارة من معان — مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض » (٢٨) .

(٢٤) نفسه ص ١٠

(٢٥) ( ٢٨ — ٢٥ ) جلال مظهر : اثر العرب في الحضارة الأوروبية ، -الصفحات

١٧٠ — ١٧١ ، ١٩٢٠

وثمة الاتجاه الثالث الذى مارسته الحضارة الإسلامية : النقل الجغرافى والانتشار ..

إذا كانت الحضارة الإسلامية فى الأولى قد مارست انفتاحا عقلانيا على تراث الحضارات السابقة ، وإذا كانت فى الثانية قد حورت فيها وفسرت وشرحت وأضافت وابتكرت وأغنت .. فإنها هنا تمارس انفتاحا إنسانيا ، يتجاوز تقاليد الانغلاق على الذات ، ويرفض الأنانية والاستعلاء ..

لقد فتح المسلمون صدورهم لكل طالب علم ، أية كانت الجهة التى قدم منها وفتحوا أبوابهم ونواغذهم على مصاريعها لى يخرج منها الضوء الجديد فيغضى قارات العالم ويلفها بالنور .. لقد وضعوا كشوفهم وهعطياتهم أمام الجميع ونادوا بأعلى صوت : أن من يريد أن يأخذ فإن الطريق مفتوح .. لقد كان عطاؤهم — بحق — غير مجذوذ ..

إن غوستاف لوبون يقولها بصراحة : « لقد كان تأثير العرب فى الغرب عظيما للغاية ، فأوروبا مدينة للعرب بحضارتها . ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب فى الغرب إلا إذا تصورنا حالة أوروبا عندما أدخل العرب الحضارة إليها » (٢٩) .. ويعلنها لكثير بكلمات واضحة « .. نستطيع أن ندرك أية ثورة فكرية بعثتها فى الغرب حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وأية فائدة جناها العلماء اللاتين منها ، فكانت هذه الترجمة أدقا جوهرية للتقدم وانتشارا للعلم العربى المنتعش بجانب الغرب » (٣٠) . ولا زلنا نذكر كلمة مسيو ايبيرى التى مرت بنا قبل قليل « لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا فى الآداب عدة قرون » .

كلنا يعرف الجسور التى انتقلت عليها معطياتنا الحضارية إلى عالم

---

(٢٩) نفسه ص ١٧٠ — ١٧١

(٣٠) نفسه ص ١٩٢

الغرب الغارق — يومها — فى سباته العميق .. اسبانيا .. جزر البحر المتوسط .. شواطئ آسيا وأفريقيا .. والأناضول .. فضلا عن تجارب الاحتكاك التاريخى البشرى ، فى السلم والحرب بين الأمة الإسلامية وشعوب الغرب .. » لقد عبرت الحضارة العربية إلى أوروبا — يقول لويس يونغ — وتركت آثارها من خلال ثلاثة جسور هى بترتيب الأهمية : اسبانيا وصقلية وسوريا .. وتبقى اسبانيا أهم طريق مرت عبره الحضارة العربية إلى أوروبا ... إن التأثير العربى الدائم فى اسبانيا ثقافيا ولغويا ، لم يكن فقط بسبب تواجد السلطة العربية فى هذه البلاد زهاء ثمانية قرون ، فإن الحضارة العربية تجاوزت اسبانيا إلى أوروبا حيث غدت اسبانيا منطاقا لترجمات فى الفلسفة والعلوم العربية على نطاق واسع ، وذلك فى مدينة طليطلة التى استعادها المسيحيون عام ١٠٨٥م . وكانت الثقافة العربية تنتقل كذلك إلى أوروبا عن طريق الباحثين إلى جنوب فرنسا وتولوز ومرسيليا وناربون ومونبليه . وشهد القرن العاشر انتقال العلوم العربية بصورة مبكرة إلى اللورين مما جعلها مركزا ثقافيا هاما مدة قرنين . كما غدت مدن أخرى مراكز للتأثير العربى الحضارى وهى ليزج وكولون وغيرهما ومن اللورين انتقلت الثقافة العربية إلى أجزاء أخرى من ألمانيا وإلى إنكلترا .

« وكانت صقلية الجسر الثانى الذى اجتازته الحضارة العربية فى طريقها إلى أوروبا .. ولقد شهد القرن الثانى عشر ظهور حضارة مسيحية إسلامية صقلية نتيجة لسياسة اللين التى اتبعها النورمانديون فى صقلية ، ولسوء الحظ فإن هذه الظاهرة من التعاون الحضارى فريدة فى تاريخ العلاقات بين العرب وأوروبا . وقد أخذ النورمانديون عن العرب ( تقاليدهم ) وآدابهم وعلومهم واستخدمت اللغة العربية لغة رسمية إلى جانب اللاتينية واليونانية وضربت النقود على النمط العربى » ..

« وكانت سورية الجسر الثالث للحضارة العربية الغابرة إلى أوروبا

خلال الحروب الصليبية ... في المجالات التجارية والعسكرية والزراعية والصناعية ، أما في مجالات العلوم ( الصرفة ) والفلسفة فلم يكن لسورية كبير تأثير في نقل الحضارة العربية إلى أوروبا . إلى جانب ذلك فإن الأدب الأوربي اغتنى بما نقلته الحملات الصليبية إلى أوروبا من الفن القصصى والأسطوري للحضارتين البيزنطية والعربية . وكان للتجار الفضل الكبير في نقل الثقافة الإسلامية إلى أوروبا عن طريق سورية في زمن الصليبيين « فقد كانت الطرق التجارية الإسلامية تنطلق من سوريا والبحر الأسود ، وبعد ذلك صوب المدن التجارية الإيطالية مثل جنوة ولوكا والبندقية ، وكانت البضائع تنقل عبر جبال الألب إلى المراكز التجارية الكبرى في أوروبا مثل أوكسبورغ وفورنبرغ وأولم وريجنسبرغ وغيرها . أما الطرق التجارية الشرقية فكانت تنطلق من المناطق الشرقية للبلاد الإسلامية عبر روسيا وإلى بلدان شرق أوروبا » (٣١) .

ومهما يكن من أمر فإن الحضارة الإسلامية مارست وظيفتها في ميدان النشر الجغرافي بالقدرة نفسها على الغاوية والعطاء التي مارست بها وظيفتها السابقتين . . لقد كانت في كل الأحوال تعمل من أجل الإنسان .

وثمة ما يجب أن يقال ها هنا . . إننا لو مارسنا تحليلا لحجم الدور الذي لعبه الإسلام ( حضاريا ) مقارنا بالأدوار التي لعبتها المذاهب والحضارات الأخرى ، سواء أكانت وضعية أم دينية محرقة . . فإننا سنجد المسافة واسعة ممتدة يصعب تقريبها ، لا سيما إذا وضعنا في الحسبان الوظائف الكبرى الثلاث التي مارستها حضارة الإسلام ) .

انه لا الحضارات السومرية والبابلية والمصرية ، ولا الحضارات الإغريقية واللاتينية والبيزنطية والهلمينية ، ولا الحضارات الفارسية والهندية والصينية ، على ما قدمته جميعا من عطاء زاهر ، بقادرة على

أن تسامت هذا الدور .. وإنه لا الفلسفات اليونانية والهندية ، ولا المذاهب الوضعية الأوروبية منذ عهد النهضة والتنوير وحتى طوباويات الاشتراكيين الفرنسيين والإنكليز ووجوديات هيدجر وكيركغارد وسارتر وكامى ، ومثالية هيغل ، ومادية ماركس وإنجلز . بقادرة أيضا على أن تسامت الإسلام فى قدرته ، ليس فقط على تكوين الحضارة وإنمائها ولكن أيضا فى تحويل القيم والأفكار إلى واقع منظور ، وتجربة معاشة ، وخبرات تتخلق حية نامية فى مساحات الزمان والمكان ..

أما الحضارة الغربية المعاصرة ، بأجنحتها كافة ، فيكفيها جنوحا فى الشخصية وانحصارا فى الدور الوظيفى ما تعانيه من اختلال مجزن فى التوازن بين الثنائيات . الأمر الذى استطاع الإسلام التحقق به بشكل يثير الدهشة والإعجاب . . .

إن البريق الذى يشع من معطيات الحضارة الغربية فيبهى الأبصار .. لن يتجاوز جلدها — بحال — إلى صميم التركيب البيولوجى والسايكولوجى لشخصية هذه الحضارة الجانحة ..

## ( ٨ )

ونريد — أخيرا — ومن خلال ما تضمنه هذا البحث من معطيات، أن نؤشر على الخصائص الأساسية للحضارة الإسلامية ، الجوهر الذى يكمن خلف المظاهر والأشكال المتغيرة ، أو الذى يتمخض عن تفاعلها الدائم ويتبلور عبر تحققها المستمر .

إنها — فى البدء — حضارة إيمانية ، بمعنى أنها تنبثق عن أصول عقيدية مستمدة من منهج عمل إلهى .. دين قادم من السماء .. وإنها — بشكل من الأشكال — تعبير متفرد عن ذلك اللقاء المرسوم بين السماء والأرض . وهى مهما تضمنت من أخطاء وانحرافات ، متعمدة أو غير متعمدة ، ومهما شذت وبعدت — أحيانا — عن مسارها الأصيل ، عن كونها التعبير الصادق للمنطلق المستمد من الجذور ، المتوجه صوب الهدف ، فإنها تظل فى نسيجها العام .. فى إيقاعها ، وصيرورتها ، وتوجهاتها ، ونبضها ، حضارة إيمانية لا تأسرها الأرض ، وتظل منتظرة الإشارة والهدى من السماء .

إنها بعبارة أخرى — حضارة ملتزمة ، صاغها مجتمع ملتزم ..

فمن وراء ركام الأحداث والتغيرات السياسية والعسكرية التى شهدناها تاريخنا عبر قرونه الطويلة ، ومن وراء قيام الدول والسلالات الحاكمة وسقوطها ، ومن وراء تأرجح القيادات العليا للحكومات الإسلامية بين التسبب والالتزام ، من وراء هذا وذاك ، كان هناك مجتمع إسلامى ملتزم ظل على وفائه للعقيدة التى صنعتة وأعطته مكانا فى العالم ، وتمثله لقيمها وتعاليمها ، فى سعيه اليومى ، وممارساته المعاشية ، وعلاقاته الاجتماعية ، وأنشطته الثقافية ، ومعطياته الحضارية عموما .

ولئن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على واقعية الإسلام وقدرته على التماس الدائم مع الحياة الاجتماعية والثقافية ، وتغطيته لساائر متطلبات النشاط متنوع الجوانب للإنسان المسلم . ولئن حدث وشذ بعض الأفراد والقطاعات الاجتماعية عن التزامها التام أو النسبي بقيم الإسلام وتعاليمه بين الحين والحين ، فجاء تعبيرها الخضارى ناقصا ، مشوها ، مبتورا ، أو مبحرا باتجاه مضاد للمجرى العام ، فإن هذه البقع السوداء المحدودة لم تكن لتغطى على المساحة البيضاء الأوسع فى الحياة الإسلامية حيث التوحد مع أهداف الشريعة والالتزام بقيمها ومعانيها . ومن ثم فإنها لا تعدو أن تكون بمثابة الاستثناء من القاعدة الأثقل والأوسع والأهم ، ولن يحكم على المجرى العام للحياة الإسلامية من خلال الزبد الموقوت الذى يطفو على وجهها بين الحين والحين .

وهى حضارة تتميز بتقابل غذ بين الأصالة والانفتاح ، بين القدرة على حماية الذات من التفكك والتغير والانحلال وبين الاستعداد الدائم لقبول القيم والخبرات من الغير وهضمها وتمثلها .

لقد تحرك المسلمون إلى العالم ، وعبر فترة قصيرة نسبيا من الزمن تمكنوا من صياغة حضارة تميزت بتلك الأصالة التى تستمد ديمومتها من تحصين الذات وعدم الذوبان فى الكيانات الغربية التى تدمر الشخصية الحضارية للأمة وتلغى ملامحها وسماتها . ولكنها لم تنفلق يوما على معطيات الحضارات الأخرى ، بل فتحت صدرها دونما عقد ولا حساسيات ، على العالم الواسع ، وأخذت وتمثلت كل ما هو إيجابى فعال فى بنية الحضارات الأخرى .

فمنذ اللحظات الأولى أخذ الإسلام على عاتقه مهمة تكوين جماعة مؤمنة متحضرة تعرف كيف تحقق التقابل الفعال بين أصالة الذات الحضارية وبين الانفتاح على خبرات الأمم والجماعات والشعوب .



ومعنى ذلك كله أن الحضارة الإسلامية كانت قديرة على الاستجابة للتحديات .. لا تنكمش دونها ، ولا تهرب إزاءها ، بل تقابلها عبر مواجهة حوارية ، تخبرها جيدا ، تفككها إلى عناصرها الأولية ، تمتحن هذه العناصر ، تحيلها إلى تكوينها الإسلامى ، وبنيتها الإيمانية الخاصة ، فتأخذ ما يتلاءم مع هذا التكوين ويمنحه القدرة على النمو والامتداد . وترفض ، وتبعد ، وتستثنى ما يعرقل حركة النمو ويضع فى طريقها العوائق والعثرات .

إن تاريخ الحضارة الإسلامية هو تاريخ صراع إيجابى فعال مع الحضارات الأخرى ، تاريخ سلسلة من التحديات والاستجابات الناجحة .. وقد كانت هذه الحضارة قديرة ، فى معظم الأحيان ، على تنويع أنماط الاستجابة بأكبر قدر من التكيف والمرونة وكانت النتيجة فى معظم الأحيان ، احتواء العناصر الإيجابية لدى الغير .. هضمها وتمثلها ، وتحويلها إلى مادة بنائية فى صيرورة الحضارة الإسلامية تعين على النمو ، والتنوع ، والغنى ، والامتداد .

وهى حضارة التوازن الفريد الذى يعد ملمحا من أهم ملامح هذه الحضارة وأكثرها خصوصية وارتباطا بشخصيتها الإسلامية .  
التوازن فى كافة الاتجاهات وعلى كافة الجبهات .. إنه بأطرافه المتقابلة وثنائياته المتوافقة ، بمثابة السدى واللحمة ، هذا التوازن الذى يتصادى هنا وهناك ، فى النظرية والتطبيق على السواء .. إنه فى صميم فكر الإسلام وفى قلب صيرورته الحضارية .

إن القرآن الكريم يقولها بوضوح ( وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ) ( ٣٢ ) .  
والوسطية هنا ليست موقعا جغرافيا أو مكانا محددا من قارات العالم ،

--- ( ٣٢ ) سورة البقرة آية ١٤٣

ولكنه موقف عقيدى ، واستراتيجية عمل ، ورؤية نافذة لموقع الإنسان فى الكون والعالم .. إنه القدرة الدائمة على التحقق بالتوازن وعدم الجنوح صوب اليمين أو الشمال .. ومن خلال هذه القدرة يتحقق مفهوم الشهادة على الناس ، لأنها تطل عليهم من موقع الإشراف المتوازن الذى لا يميل ولا يجور .. تشرف عليهم وهى تتحرك على الصراط .. وهى تمسك بالميزان الحق الذى ترن به كل صغيرة وكبيرة فى هذا العالم فتميز بين الطيب والخبيث ، وتفرز الذهب من التراب وتبين الحق من الباطل .

ورغم أن هذا التوازن قد تعرض ، على المستوى التاريخى ، للتأرجح بين الحين والحين إلا أنه ، فى إطار التجربة الإسلامية ، يظل ، من بين سائر التجارب الأخرى فى العالم ، أكثرها وضوحا وتألقا ..

إنها الحضارة التى قدرت انطلاقا من رؤيتها هذه ، على أن تجمع فى كل متناسق واحد : الظاهر والباطن ، والحضور والغياب ، والمادة والروح ، والقدر والاختيار ، والضرورة والجمال ، والطبيعة وما وراء الطبيعة ، والتراب والحركة ، والوحدة والتنوع والأخلاقية والانفعالية ، والفردية والجماعية ، والعدل والحرية ، والوحى والتجريب ، والدنيا والآخرة ، والفناء والخلود .

وهذا يقودنا إلى ما يتمخض عن هذه الخصيصة : الشمولية التى تميزت بها حضارة الإسلام .. القدرة على التحقق بكافة الأنشطة، والامتداد الى كافة المناحى والتوغل فى نسيج الحياة والوجود ، ومتابعة كل ما من شأنه أن يهم الانسان .

وهكذا وجدنا بناء هذه الحضارة يسعون فى الأرض لكى يمسوا كل قضية ، ويتعاملوا مع كل موقف ، ويركبوا ويبينوا من كل ما يقع تحت

أيديهم من حيثيات ومواد .. فما ثمة أمر مما يهم العقل ، أو الروح ، أو الجسد ، أو الحبس ، أو الوجدان إلا غالوا فيه كلمتهم ، وقدموا ، حسب قدراتهم وإمكاناتهم يومها ، التعبير الحضارى المناسب .

لم ينكمشوا يوما إزاء هذا الجانب أو ذاك من جوانب الكون والعالم ، ولا انفسروا إزاء هذه المساحة أو تلك من سطح الوجود ، ولا هربوا أو فروا أمام معضلة من معضلاته .

إنها الحضارة التى تحركت لكى تقدم طعاما أكثر مادة غذائية صالحة للعقل والجسد والروح ، فى وقت واحد ، وكانت فى هذه المجالات الثلاثة تملك الخبرة التى تمكنها من أن تعد أجود صنوف الطعام .

وإذا كانت معظم الحضارات البشرية التى شهدناها التاريخ ترمى بثقلها صوب هذا الجانب أو ذاك من جوانب السعى البشرى فى الأرض ، فتميل لأن تكون عقلية ، أو حسية ، أو روحية .. إلى آخره وتصب اهتمامها على هذه المساحة أو تلك من مساحات التجربة الحيوية ، فإنه فى حضارة الإسلام ليس ثمة جنوح فى هذا الاتجاه أو ذاك .

كل ما كان ينبض فى نسيج العالم والحياة والوجود كان يجد صده المناسب فى نبض الحضارة الإسلامية التى كانت قديرة على تنفيذ حوار متكافئ بين الأنشطة البشرية وبين ظواهر الوجود وحقائقه ومعطياته كافة .

ثم هى ، بسبب هذه الخصائص جميعا ، حضارة إنسانية ، بمعنى أنها جاءت لكى تتعامل مع الإنسان وتكون بحجمه ، وتستجيب لمطامحه ومنازعه ودوافعه واهتماماته وأشواقه ، وبمعنى أنها لم تضع بينها وبين الإنسان أسلاكا شائكة باسم العرقية حيناً ، أو الطبقة حيناً ثانياً ، أو المذهبية حيناً ثالثاً ، أو الجغرافية حيناً رابعاً ، بل إنها لم

تضع هذه الأسلاك حتى باسم الدين رغم أنها حضارة منبثقة عن الدين نفسه ! .. وبمعنى أنها وهبت نفسها للإنسان أيا كان فى الزمن والمكان دون أن تمارس خطيئة الانغلاق على الذات .

ولقد رأينا كيف أنه ما من حضارة فى تاريخ العالم قدرت على تجاوز هذه الحساسيات جميعا ، ومخاطبة الإنسان ، هذا الكائن المتفرد ، من حيث هو إنسان كهذه الحضارة المنبثقة عن هذا الدين ! .

وقد سبق أن مر بنا ونحن نتحدث عن وظائف الحضارة الإسلامية كيف أن هذه الحضارة مارست انفتاحا إنسانيا ، يتجاوز تقاليد الانغلاق على الذات ويرفض الأنانية والاستعلاء .

لقد فتح المسلمون صدورهم وعقولهم لكل طالب علم ، أية كانت الجهة التى قدم منها ، وفتحوا أبوابهم ونوافذهم على مصاريعها لكى يخرج منها الضوء الجديد فيغطى قارات العالم القديم ويلفها بالنور .. لقد وضعوا كشوفهم وخبراتهم أمام الجميع ، ونادوا بأعلى صوت : إن من يريد أن يأخذ فإن الطريق مفتوح .. لقد كان عطاؤهم — بحق — غير مجذوذ .

ربما يكون فى هذا الإسراف فى أخلاقية العطاء ما يثير نقدا أو اعتراضا ، إذ كيف تسلّم خصمك السلاح الذى سيقهلك به ، وفى الحضارات جوانب مما قد يتحول إلى سلاح يقتل فعلا ؟ .

إن الغربيين فى قرننا هذا صنعوا القنبلة الذرية ، وأعقبوها بالهيدروجينية فالنيوترونية .. إلى آخره .. ولم يسمحوا لأنفسهم قط أن يعطوا معادلاتها الرياضية والفيزيائية لأيدى وعقول الأمم الأخرى ، اللهم إلا من يحسبونه امتدادا لهم .

أفما كان أولى بالمسلمين أن يتوقفوا بعض الشيء ، ويراجعوا حساباتهم ، قبل أن يمضوا بالعطاء حتى آخر الشوط ؟ ؟ •

هذه مسألة أخرى •• ويكفى الحضارة الإسلامية شرفاً أنها كانت حضارة إنسانية تعمل من أجل الإنسان أيا كان موقعه في الزمن والمكان ، كما علمته عقيدته أن يعمل •

أليست هي العقيدة القادمة من عند الله سبحانه ، الذي خلق الإنسان ، وعلمه الأسماء كلها ، وحمله في البر والبحر ، وفضله على الخلائق ، ومنحه السيادة على العالمين ؟ •

تلك هي بإيجاز شديد خصائص حضارة الإسلام : إنها حضارة إيمانية عقيدية ملتزمة ، أصيلة ، منفتحة ، قديرة على الاستجابة للتحديات ، متوازنة ، شاملة ، قديرة على التحقق في كافة مناحي الحياة والوجود •• ثم هي في إطارها ونسيجها ، إنسانية ، تعبر عن طموح الإنسان لعمارة العالم وتحضيره ، وتسعى للاستجابة لأشواق الإنسان ومنازعه أيا كان الإنسان في الزمن والمكان •



## اهم المراجع

القرآن الكريم

اوليرى : دى لاسى

الفكر العربى ومركزه فى التاريخ ، ترجمة اسماعيل البيطار ،  
دار الكتاب اللبنانى ، بيروت — ١٩٧٢ .

حسن : د. حسن ابراهيم

تاريخ الاسلام السياسى ، الطبعتان الخامسة والسادسة ، مكتبة  
النهضة المصرية ، القاهرة — ١٩٦٠ — ١٩٦٢ .

خليل : عماد الدين

حول اعادة تشكيل العقل المسلم ، مجلة الامة ، الدوحة — ١٩٨٣  
فى التاريخ الاسلامى : فصول فى المنهج والتحليل ، المكتب  
الاسلامى ، بيروت ١٩٨٠ .

ملاحم الانقلاب الاسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، الدار  
العلمية ، بيروت — ١٩٧٠ .

نور الدين محمود : الرجل والتجربة ، دار القلم ، دمشق — ١٩٨٠ .

الطبرى : محمد بن جرير

تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم ، دار  
المعارف ، القاهرة ، القاهرة ١٩٦١ — ١٩٦٢ .

العقاد : عباس محمود

اثر العرب فى الحضارة الاوربية ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ،  
القاهرة ١٩٦٠ .

عنان : محمد عبد الله

مواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، الطبعة الرابعة ، مؤسسة  
الخانجى ، القاهرة ١٩٦٢ .

**غروبنام : جى. ئى ( تحرير )**

الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية ، تأليف عدد من  
المستشرقين ، ترجمة د. صدقي حدى ، مكتبة دار المتنبى ،  
بغداد ١٩٦٦ .

**لوبون : غوستاف**

حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الطبعة الثالثة ، دار احياء  
الكتب ، القاهرة ١٩٥٦ .

**ماجد : د. عبد المنعم**

التاريخ السياسى للدولة العربية ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الجامعة  
العربية ، بيروت ١٩٦٦ .

**مظهر : جلال**

اثر العرب في الحضارة الاوربية ، دار الرائد ، بيروت ١٩٦٧ .

**يونغ : لويس**

العرب واوروبا ، ترجمة ميشيل ازرق ، دار الطليعة ، بيروت  
١٩٧٩ .



مطبعة عبير للكتاب والأعمال التجارية  
١٦ شارع لمى المطيعى — حدائق حلوان